الطبعة الثانية

لكل طالب علم

توصيات أخلاقية وتربوية لطلاب العلوم الدينية

تقريراً للمحاضرات الأخلاقية التي ألقاها

سماحة الشيخ حبيب الكاظمي

في حوزة الاطهار عليهم السلام التخصصية

لكل طالب علم

توصيات أخلاقية وتربوية لطلاب العلوم الدينية

لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي

الطبعة: الثانية ـ ١٤٣٨ هـ

الناشر: نور المعارف

الإخراج الفني: السيد محمّد رضا الحكيم

المطبعة: مطبعة مؤسسة بوستان كتاب

الكميّة: ٣٠٠٠ عدد

٩٠٠٠ تومان

نور المعارف للطباعة والنشر:

ايران: قم ، شارع معلم ، مجمع ناشران ، رقم ٥٠٨

الهاتف: ٩٨٢٥٣٧٨٤١١٣٣+ الجوال: ٩٨٩١٠١١٠٤٥٣٨+

مراكز التوزيع:

ايران: قم ، شارع سميّة، فرع ١٢ ، حوزة الأطهار (ع) التخصصية

الهاتف: ٩٨٢٥٣٧٧٤٥٢٨١+

النجف الأشرف: شارع الإمام الصادق (ع) ، فرع مصرف الرشيد ، مقابل مكتب السيد الحائري ، مجمع المعارف ، الهاتف: ٠٧٨٠٩١٨٠٤١٥

لبنان: بيروت ، الرويس ، شارع الرويس، بناية ناصر ، دار الولاء

الهاتف: ٩٦١١٥٤٥١٣٣+ الجوال: ٩٦١٣٦٨٩٤٩٦+

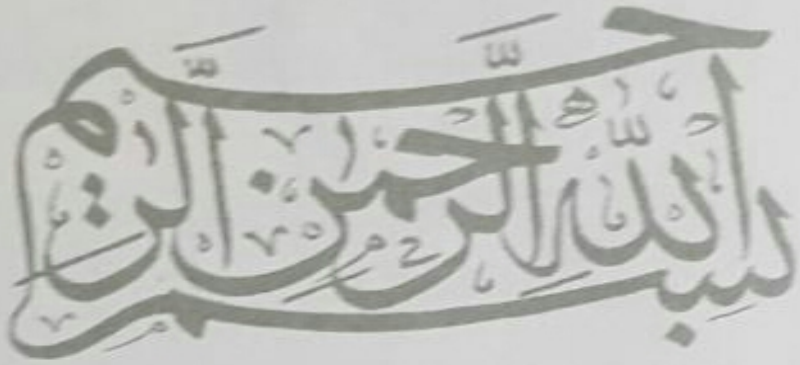
بسم الله الرحمن الرحيم

لكل طالب علم

توصيات أخلاقية وتربوية
لطلاب العلوم الدينية

تقريراً للدروس التي ألقاها

سماحة الشيخ حبيب الكاظمي

في حوزة الأطهار عليهم السلام التخصصية

سرشناسه: کاظمی، حبیب، ۱۳۳۶
عنوان و نام پدیدآور: لکل طالب علم/ حبیب کاظمی
مشخصات نشر: قم: نور معارف، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری: ۱۱۲ص.
شابک: ۳-۲-۹۵۰۰۱-۶۰۰-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت: عنوان دیگر: توصیات اخلاقیه و تربویه لطلاب العلوم الدینیه.
یادداشت: کتابنامه: ۱۱۲ ص؛ به صورت زیرنویس.
یادداشت: عربی
موضوع: طلاب- اخلاق
موضوع: طلاب- راه و رسم زندگی
موضوع: اخلاق اسلامی
رده‌بندی کنگره: ۱۳۹۵ ۸ ل ۲ ک / ۷ / Bp ۲۵۴
رده بندی دیویی: ۲۹۷/۶۵۶
شماره کتابشناسی ملی: ۳۹۸۹۱۶۷

فهرس المحتويات

الباب الأول:
خارطة الطريق إلى المنبع الإلهي في إطارالقرآن الكريم

(حملة القرآن) ١٥
(مفهوم الأشرفية) ١٥
(مفهوم الحمل القرآني) ١٦
(البعد عن القرآن) ١٨
(الأنس بالقرآن) ٢٠
(التفقه في القرآن) ٢٠

الباب الثاني:
خارطة الطريق إلى المسيرة العلمية

الفصل الأول: في إطارالمقومات

(تمحيص النية) ٢٥
(البداية الموفقة) ٢٥
(تمحيص النية) ٢٧
(البداية الموفقة) ٢٧

٢٩
(إكسير الموفقية) ٣٠
(الالتفات إلى صاحب الأمر عجل الله فرجه) ٣٢
(معيار المطالعة) ٣٣
(قاعدة الإتقان) ٣٤
(الحصيلة الدراسية) ٣٥
(حضور الطالب والأستاذ) ٣٦
(الأدب مع الكتاب) ٣٦
(هواية طالب العلم) ٣٧
(سيرة العلماء)

الفصل الثاني: في إطار المعوقات

(المنزلق الشيطاني) ٤٣
(الهاجس الشيطاني) ٤٥
(الخَلَج الموبق) ٤٦
(منحدر الوهم) ٤٨
(آفة الاغتراب) ٤٩
(مخافة الرزق) ٥٠
(جانب التقصير) ٥١

الباب الثالث:

خارطة الطريق إلى المسيرة العملية

الفصل الأول: في إطار القواعد والأسس

(قاعدة الترشح) ٥٣
(قاعدة الترشح) ٥٩

(قاعدة الإحراق) ٦٠
(النظرة إلى الوجود) ٦١
(المحور العملي) ٦٤
(الميزان الجامع) ٦٥
(محرك الوجود) ٦٦
(مدينة الحياة) ٦٨
(المعية الإلهية) ٦٩
(الإفهام الإلهي) ٦٩
(مبدأ الاستجداء) ٧٠
(الطفرة الروحية) ٧٢
(الشراب الطهور) ٧٣
(الفيصل بين الحال والمقام) ٧٤
(الفيصل بين القرب الظاهري والباطني) ٧٤
(الاستقرار الباطني) ٧٥
(الأركان الخمسة لترويض النفس) ٧٦

الفصل الثاني: في إطار الآداب والمقررات

(الزيارة وآدابها) ٨١
(أدب الصلاة على النبي وآله) ٨٣
(أدب الاستخارة الإلهية) ٨٣
(مراعاة الحقوق) ٨٤
(المحاسبة الدقيقة) ٨٦

الفصل الثالث: في إطار المقومات

(موجبات الإخلاص) ٨٩
(عوامل الترقي) ٩٠
(الصلاة الخاشعة) ٩٢
الصلاة في إطار الحقيقة ٩٢
الصلاة في إطار القبول ٩٣
الصلاة في إطار الاستعداد ٩٤
الصلاة في إطار العرفان ٩٥
الصلاة في إطار التوسل ٩٥
(صلاة أول الشهر) ٩٦
(وقفة على مناجاة المريدين) ٩٦
(وقفة على دعاء كميل) ٩٧

الفصل الرابع: في إطار المعوقات

(موانع الترقي) ١٠١
(العزة والغضب) ١٠٥
(ضيق النفس) ١٠٦
(منزلق الإدبار) ١٠٨
(آفة العجب) ١١٠
مصادر الكتاب ١١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الناشر في الخلق فضله و الباسط فيهم بالجود يده، نحمده في جميع أموره، و نستعينه على رعاية حقوقه،و نشهد أن لا إله غيره، و أن محمدا عبده و رسوله، أرسله بأمره صادعا، وبذكره ناطقا، فأدى أمينا،ومضى رشيدا، وخلّف فينا راية الحق، مَن تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، و من لزمها لحق[١].

اللهم واجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل[٢].

اللهم و ضاعف صلواتك و رحمتك و بركاتك على عترة نبيك، العترة الضائعة الخائفة، بقية الشجرة الطيبة الزاكية المباركة، و أعلِ اللهم كلمتهم، وأفلج حجتهم، و ثبت قلوب شيعتهم و حزبك

---

١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٠.

٢) نهج البلاغة: الخطبة ٧٢.

على طاعتهم وولايتهم ونصرتهم وموالاتهم، وأعنهم وامنحهم الصبر على الأذى فيك، واجعل لهم أياما مشهودة، وأوقاتا محمودة مسعودة، توشك فيها فرجهم، و توجب فيها تمكينهم و نصرهم[١].

اللهم العن ظالمي آل محمد حقهم و انتقم منهم. اللهم العن الأوّلِين منهم و الآخرين، و ضاعف عليهم العذاب، و بلّغ بهم و بأشياعهم و أتباعهم و محبيهم و متبعيهم أسفل درك من الجحيم، إنك على كل شيء قدير، اللهم عجّل فرج وليك وابن وليك واجعل فرجنا مع فرجهم يا أرحم الراحمين[٢].

لكل طالب علم

يا طالب العلم إليك خارطة طريقك نحو هدفك النيّر، ومبتغاك الخيّر في ومضات تضيء لك المسير، ليغدو السير عليك سهل يسير، وإن كان في البين روادع في التعويق والتعسير !.. ولكن لعلهُ ينالك رَوح من التوفيق والتيسير، فكن بالتوكل على الله سبحانه متسما، وفي طوق التفويض له بالصبر مسلِّما، وبحجج الله وأولياءه في سبيل الرشاد بالتوسل مُفهَّما.

تأمل بعين البصيرة في هذه المقالة النافعة - إن شاء الله تعالى - لتقطف بالعمل ثمارها اليانعة، فهي أسس الطريق في المبدأ والمنتهى، فخذ بها لتصل إلى ما هو مرجو في المبتغى، تدّخر به المئونة ليوم الفاقة عند الملتقى.

---

١) مصباح المتهجد: ص ٧٨٥.
٢) كامل الزيارات: ص ٣١٤.

وبعيدا عن السجع والأدب في البيان، فإن هذا الكتاب الموجز المعنون تحت عنوان «لكل طالب علم» هو حصيلة تقريرات مقتبسة من محاضرات المربي فضيلة الشيخ حبيب الكاظمي – حفظه الله ورعاه – التي ألقيت في حوزة الأطهار عليهم السلام التخصصية.

وبحمد الله سبحانه فإن هذا العمل - على شدة اقتضابه - فهو شامل لما يحتاجه طالب العلم في مسيرته العلمية والعملية، فنرجو من الله تبارك وتعالى أن يتقبل منا هذا القليل بأحسن القبول.

والحمد لله رب العالمين

حوزة الأطهار عليهم السلام التخصصية

الباب الأول

خارطة الطريق إلى المنبع الإلهي في إطار القرآن الكريم

حمَلة القرآن

البعد عن القرآن

الأنس بالقرآن

التفقه في القرآن

(حملة القرآن)

مما ينبغي لطالب العلم هو أن يجعل القرآن الكريم في القمة العليا لسقف اهتماماته في إطار التحصيل العلمي والسعي العملي، فقد صدر عن الشارع المقدس في بيان الفضل العظيم في حق هذا الكتاب المقدس ما لا يسع المقام لاستطراده، ولكن نختار منها - في هذا المجال - ما رواه الصدوق في الفقيه عن عبدالله بن العباس عن النبي ﷺ: «**أشراف أمتي حملة القرآن**»[1].

وفي هذا المجال نسلط الضوء على هذين المحورين:

(مفهوم الأشرفية)

إن الأشرفية والأعلائية في دائرة الملاكات الدنيوية لا قيمة لها في الموازين الإلهية، فنظرة الناس لا تعكس الحدود الواقعية، ومما يوجب الاسف أن هذه النظرة الخاطئة قد انبثقت في حوزاتنا العلمية فعلى ما يسطره العرف الحوزوي في مقرراته أن مدرس الكفاية أعلى

---

١) الكافي للكليني: ج٢، ص٦٠٣؛ ح١ ٥٤.

في رتبة المقام من مدرس الألفية والحال أن المعايير الإلهية تصطدم مع هذه المقررات الخارجة عن دائرة الملاكات الواقعية. فرب امرئ درّس الأجرومية - طلبا للرضا والقرب الإلهي - خير من ألف درسوا الخارج طلبا للسمعة والعنوان.

وعلى طالب العلم أن يمحّض نظره إلى عالم القرب الإلهي، ويبحث عن التكليف الشرعي المتعلق به فقد يجد -التكليف الفعلي -في أن يدرس الأجرومية لطالب منقطع لا أستاذ له، فيترك عندها تلك الدروس ذات العناوين البراقة في إطار هذا العرف الدنيوي ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى ﴾[1].

(مفهوم الحمل القرآني)

إن حمل آيات الله عز وجل في إطار الحقيقة لا يصدق فقط على ما هو المقرر من الفروع القرآنية في دائرة التلاوة والتجويد والحفظ بل حتى التفسير. رغم أنه واقع في الرتبة الأعلى لهذه الفروع.

فأما القول في التلاوة والتجويد، فعند التأمل نراها متفرعة على حركة الأوتار الصوتية في الحنجرة، مما يجعل التلاوة والتجويد في قالب مميَّز من منطلق الكمال الظاهري.

وفي مقام الصدق التنزّلي فإنه وإن صدق عليه الحمل فهو حمل للألفاظ لا غير، وكذا في مقام الإصطلاح فإنه إن اصطلح عليه الحمل فهو حمل ظاهري ومثَله كمثل من له القوة على حمل الأثقال

---

١) سورة النجم: الآية ٣٢.

فإن هذه القوة الظاهرية، لا تقع في إطار الباطن الذي يدور عليه الحقيقة والواقع.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه مرَّ بقوم فيهم رجل يرفع حجرا يقال له حجر الأشداء وهم يعجبون منه فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يرفع حجرا يقال له حجر الأشداء فقال: «**ألا أخبركم بما هو أشد منه رجل سبَّه رجل فحلم عنه فغلب نفسه وغلب شيطانه وغلب صاحبه**».[1]

وكما أن القوة البدنية في مفهومها تباين كظم الغيظ في مفهومه، فكذا الحكم في تلاوة القرآن وتجويده، عند التباين المفهومي مع الحمل القرآني الذي يريده منزّل القران العظيم.

وأما القول في حفظ القرآن فنقول فيه أيضا: إنه متفرع على تخزين تلك المفردات القرآنية في فضاء الذاكرة الذهنية فهو - إن صدق عليه الحمل في إطار التنزل - فهو حمل للمفردات لا غير، وكذا إن اصطلح عليه الحمل فهو من الحمل الظاهري.

وأما القول في تفسير القرآن فنقول فيه أيضا: إنه متفرع على العلم بظواهر تلك المفردات والمعاني القرآنية في إطار الحمل العلمي الصرف، الذي قد يؤول إلى قول الله تعالى ذكره: ﴿**مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ**﴾[2] ويكمن ذلك في الحمل الظاهري أيضا، كمن تعلم الطب ثم اكتفى بذلك، ولم يضع هذا العلم في أطار الممارسة والتنفيذ فلا يُرى لعلمه هذا فائدة.

---

١) تنبيه الخواطر: ج٢، ص١٠.

٢) سورة الجمعة: الآية ٥.

وأما القول في الحمل الباطني المترشِح من بركات الواقع، فهذا هو المطلوب من الحمل، وحينئذ يكون مثَله كمثل حامل الطب الذي هو دوار بطبه، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، إذ تعلّم الطب ثم أخذ يبحث عن المرضى ليداويهم من غير طلب العِوض.

وكذلك حامل القرآن تعلم علومه ثم أخذ يبحث على مَن وقع في عتمة الظلام، ليضيء له الطريق بعد أن أخرج نفسه - بنور القرآن - من هذه الظلمة، وذلك بعد أن تعلم علوم القرآن وعمل بها.

(البعد عن القرآن)

إن من المؤاخذات على طالب العلم هو الإبتعاد عن عوالم القرآن في معالمه الظاهرية - فضلا عن نفحاته ورشحاته الباطنية - فمن تراخت به السبل عن أُطُر الظاهر، تضاعف التراخي به عن أُطُر الباطن!

وكم من المؤسف حقا أن يتوقف طالب العلم في فهم مفردة من المفردات القرآنية - التي لا ينبغي له التوقف فيها - كأن يُسأل عن معنى قوله عز وجل ﴿الله الصَّمَدُ﴾ فلا يجيب صراحا، لأن القرآن الكريم كامن عنده في عالم الألغاز والرموز المبهمة، فيعتريه الجهل في ظواهر المعاني لمفردات السور القصار فضلا عن السور الطوال، فيتلو آيات الله سبحانه وتعالى وهو حائر لا يدري من أين وإلى أين في حركته التكاملية إلى الله تعالى.

فعليه - على أقل التقادير - أن يطالع التفاسير الهامشية

كتفسير المعين ونحوه، ثم يترقى في مطالعة التفاسير العلمية التي يتصدرها تفسير الميزان.

وكان العلامة المرحوم السيد الطباطبائي يتوقع أن يصدر كل عامين - بعد تفسيره - تفسيرا جديدا للقرآن الكريم[1] ولكن بقي هذا التفسير المزبور هو الأول في تميزه على كل التفاسير، وإن كان قد خرج بعده جملة من التفاسير، لكنها لم ترقَ إلى ما رقى له في التميز والتألق، مع تقديرنا لكل من بذل جهده في فهم كتاب الله تعالى.

ومن عمدة إشكالات العامة على بعض الخطباء هو اللحن في القراءة والكلام، فكم من المؤسف أن لا يتقن خطيب قراءة الآية، فيلحن في كلامه ويأتي خطيب - ممن هو بعيد عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام - لا يخطأ في لام ولا ميم.

ورأينا البعض لا يصلي خلف عالم ممن له نصيب في التقوى والورع بدليل أنه يخطأ في قراءته، ولا نخفي سرا أن البعض عندما صلينا خلفه وجدناه يلحن لحنا واضحا.

وكم يُشجي القلب أن أطفال الحي قد تعلموا القراءة وأتقنوها وهو - بما له من العلم - لا يزال يلحن في قراءته وقد قرأ الفقه والأصول - بل ودرّسهما - ولكنه لم ينطق الواو والضاد كما ينبغي فضلا عن إدراك بعض المفردات القرآنية.

---

١) نقلا عن ابنه (المرحوم السيد عن الباقي) في لقاء لنا معه قبل أسبوع من وفاته.

(الأنس بالقرآن)

إن من أول خطوات القرب من معين القرآن المجيد،تبدأ من محطة الأنس بكتاب الله تعالى فينبغي لطالب العلم أن يسعى لتحقيق حالة الأنس في باطنه.

ولنقف في هذا المثال على إحدى الهبات الالهية لمن أسلم قلبه لكتاب الله تعالى لنستلهم منها العبرة: فقد تبلورت هذه الفكرة عند احدى المؤمنات إلى أن صارت متعتها بالقرآن، إلى حد أنها تفتح كتاب الله عز وجل في ساعات تتفكر في صفحات منه، تطلب من الله أن يفهمها مراده في ما يقول، ولم يكن عندها حتى تفسير واحد ترجع إليه.

ففتح الله سبحانه وتعالى لها بابا في فهم القرآن[1] جراء هذا الأنس الذي تجلى في ذاتها، فليكن الأنس شعارنا في رحاب القرآن الكريم.

(التفقه في القرآن)

إن المعيار الفيصل في تشخيص من كان ذاكرا للقرآن عن غيره، يكمن في إطار التفقه المنبثق من البصيرة الرافعة للصم والعمى، وذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَ الَّذينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً﴾[2].

إن البعض قد يرتل القرآن ترتيلا، وتغرورق عيناه بالدموع ولكنه

---

١) ولا يخفى، أنا لسنا في مقام الحث على أن يُفسر القرآن بالرأي، وما تقدم ذكره كان في تبيان الأنس ومعرفة الظواهر القرآنية على الاقل ومحاولة العمل بها.

٢) سورة الفرقان: الآية ٧٣.

يخر عليها صما وعميانا، فلا ينبغي أن نغتر بمن يبكى عند التلاوة، والحال انه أعمى قد أطبق عينيه عن آيات الله وبيناته !

ولا عجب فيمن يتلو القرآن بتلاوة عذبة تطرب السمع، والحال أنه صنيع حنجرته في حركة أوتار الصوت، والتي لا قيمة لها في المعايير الإلهية عندما لم تتوّج بالعمل في إطار المنهج القرآني، فلنتفقه في القرآن الكريم وذلك بأن نتلوه ونعمل به في حركتنا الجوارحية والجوانحية.

الباب الثاني

خارطة الطريق إلى المسيرة العلمية

الفصل الأوّل: في إطار المقومات

الفصل الثاني: في إطار المعوقات

الفصل الأول
في إطار المقومات

(تمحيص النية)

(البداية الموفقة)

(إكسير الموفقية)

(الالتفات إلى صاحب الأمر عليه السلام)

(معيار المطالعة)

(قاعدة الإتقان)

(الحصيلة الدراسية)

(حضور الطالب والأستاذ)

(الأدب مع الكتاب)

(هواية طالب العلم)

(سيرة العلماء)

(تمحيص النية)

ومن عمدة ما ينبغي على طالب العلم، هي مراجعة نواياه بين فترة وأخرى، فقد تكون نواياه في بادئ الأمر في إطار حسن، ثم تتحول بعد مرور الزمن إلى قالب آخر، فيصبح همّه الأكبر أن ينجز المادة -كيف ما كان - لينال في خاتمة الأمر الشهادة العلمية، وتصير عينه على المقامات والعناوين الظاهرية فليُتنبه لهذا المنزلق.

(البداية الموفقة)

على طالب العلم أن يجعل شعاره في عامه الدراسي الجديد، أن يكون عامه هو الأفضل في دائرة الجد والإتقان، وليُعلم أن ما قد سلف من التقصير والإهمال في التحصيل، قد لا يمكن التعويض عنه، لأن الشيء لا ينقلب عما وقع عليه، أعني الزمان الذي فاته في غير ما خلقه الله تعالى من أجله، وليجعل ما مضى من ذلك ذريعة للتميز والتفوق لما هو قادم.

ومن أهم مقومات التميز والموفقية أن يستثمر وقته في عامه

الدراسي، ويتمحض للدرس والبحث العلمي، ويترك تلك الإنشغالات التي تمحق أيامه، فينهي عامه وقد انمحق نصفه في تلك الإنشغالات.. ومن المعلوم أن ضياع الفرصة الزمنية للتحصيل الدراسي في ظل محدودية البقاء والعمر، لِمن أكبر مضيّعات المستقبل العلمي لطالب العلم.

ومن أهم الركائز لتحصيل هذه المقومات، أن يقف وقفة توسل خاشعة مع ولي الأمر عجل الله فرجه الشريف ليحصل على رضاه وقبوله، في دائرة يمنه ورأفته الإلهية.. ولقد كانت هذه الركيزة من دأب الأعلام في سيرتهم المباركة، فكان أحد العلماء الذين هم من أهل التوفيق قد أسرّ الينا – ذات يوم – بسر تميّزه فقال: أنا عندما قدمت إلى الحوزة العلمية، فقد قضيت زمنا في التوسّل بالصاحب عجل الله فرجه الشريف ليكشف لي عن رضاه في طريقي لطلب العلم، فأتاني الجواب بعلامة منه.

فليبحث طالب العلم على هذه الوقفة مع بدء عامه الدراسي الجديد ليتأهل للتميز، فلا شغل أشرف قياسا إلى شغل اهل الدنيا - الدائبين في دنياهم - من طلب العلم، حيث إنه من نعم الله تبارك وتعالى عليه أن شرفه بهذا الشرف الأصيل، بأن شغله بطلب علوم الدين والشريعة وترك تلك الإنشغالات الدنيوية، فينبغي عليه أن يؤدي شكر هذه النعمة الكبرى في دائرة القول والعمل، حتى لا تُسلب منه هذه النعمة حكما او موضوعا.

وفي ظلّ توفر القابليات الذهنية، وتحسن الأوضاع المادية في الحوزات، فانه تبقى العقبة الكبرى الّتي تعترض طريق طالب العلم، والتي تتمثل في ضعف الإقبال على الطلب والتحصيل العلمي،

وتضاءل الجدية والمثابرة وإهمال الحضور إلى مجلس الدرس، الذي هو محراب الإنقطاع والتقرب في محفل الأنس الإلهي.. فعليه أن يتجاوز هذه العقبة ليصل إلى الهدف المطلوب، وليوطن نفسه على قبول قانون العلم والتعلم: ألا وهو أن الانسان إذا أعطى العلم كله، فقد يعطيه العلم بعضه.

وليُؤخذ بعين الاعتبار أن البدايات إذا تبلورت على وتيرة جيدة، كانت ممهدة للخواتيم الحسنة، وبالعكس فمن يفتتح نهاره على حالة من الإدبار الروحي - كأن فاته قيام الليل أو نام عن صلاة الفجر - فلا يُرجى له التميز والتألق في تتمة نهاره.. وكذا الحكم في بدء السنة الدراسية الجديدة، فمن كانت بداياته مقترنة بألوان الموفقية، فيُرجى عندها أن تكون خواتيمه مرسومة بهذا النحو.

(إكسير الموفقية)

إن الإكسير المقوم لمسيرة طالب العلم يكمن في إتقان الصلاة، ففي الرواية «**واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك**»[1] فكل أمر معلق على الصلاة من جهة التوفيق والقبول، فإن أتقن المرء أدائها كان من المرجو ان يسري التوفيق إلى كل مناحي الحياة، ولابد في الإتقان أن يكون في كل الجهات: كالصلاة في أول الوقت، مع حضور القلب، وفي قالب الجماعة.

وقد رأينا بعض طلاب العلم تركوا الجماعة بحجج واهية، كأن

---

١) وسائل الشيعة: ج ٤، ص ١٦١؛ ح ١٢.

يدعى بأن في الفرادى يتحقق الخشوع الأتم، وفي الجماعة كثيرا ما يتشتت القلب، وهذه حجة واهية فليغمض المرء عينيه مثلا، ويلقن نفسه بأنه قائم يصلي بمفرده عندما يكون في الجماعة !.. وليعلم أن هناك فيوضات الهية تعطى في الجماعة لا يمكن أن يصل اليها العبد خارجها، فقد ذكر صاحب العروة الوثقى: وقد ورد في فضلها وذم تاركها من ضروب التأكيدات ما كاد يلحقها بالواجبات.

(الالتفات إلى صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف)

وإنه مما ينبغي أن يحرص عليه طالب العلم أن تكون له إلتفاتة خاصة إلى المولى الصاحب عجل الله فرجه الشريف فإن نظرته إلى طالب العلم لهي نظرة مضاعفة بعد النظر إلى عامة شيعته، لأنه دخل في طريق خدمته، فإياه وإياه أن يُدخِل الحزن والهم على قلب مولاه (أرواحنا فداه) بفعل شنيع في حق نفسه أو إخوانه، وليُهيئ نفسه لتلقي نظرة اللطف من قبل مولاه.

وكما أن للصاحب عليه السلام نظرة في مجال اللطف فإن له أيضا موقفا في إطار العقوبة، فكم رأينا من الإنتكاسات عند بعض من طلب العلم، حيث خرج من هذا المسلك والبعض قد آل أمره إلى الإنحراف والضلالة!.. فعلى طالب العلم أن يطلب حثيثا من المولى عجل الله فرجه الشريف التسديد والعناية إلى آخر عمره.

وعليه أن يُرضي الصاحب عليه السلام في كل جهاته، فلا يسخط مولاه بتخلفه عن مجلس الدرس أو بإهمال مطالعة الدرس، فإذا لم يطلب رضا الإمام عجل الله فرجه الشريف فمن هو أهل لأن يطلب رضاه؟!.

وليُبحث عن رضا مولاه في غير دائرة الدرس أيضا، كأن يذهب إلى مسجد السهلة أو جمكران في إطار التوسل به، أو يقيم مجلس العزاء على جده الحسين عليه السلام في مجال مشاركته أحزانه، أو يجعل ذكره الذي يتمتم به بين الوقت والآخر «يا أبا صالح المهدي أدركني» في إطار طلب العون منه وهكذا.. فالذي يريد التميز والتوفيق في مسيرته لابد أن يحقق ارتباطا مميزا مع إمام زمانه.

وفي إطار القصص والحكايات مما رأيناه في هذا المجال أن احد العلماء كان مولعا بذكرِ الصاحب عجل الله فرجه مكثرا من التأليف حوله، متنعّما ببركاته إلى درجة أرانا مؤلَّفا سجل فيه موارد لطف الامام عليه السلام في حقه ويقول: هذه ألطاف الإمام عليه السلام في حقي من صغري إلى هذا العمر - وأنا رجل واحد - فكيف ببقية الأمة؟!

لقد التقيت به مرة أخرى في مدينة مشهد وقد جاء لزيارة الإمام الرؤوف عليه السلام فقال: أتريد أن أريكم المحب الحقيقي لصاحبنا عجل الله فرجه؟! فاصطحبنا معه وذهب بنا إلى قرية نائية عن حدود المدينة، وكانت تفوح منها رائحة الأغنام - حيث يقطنها الرعاة - فوصلنا إلى بيت عتيق، فطرق الشيخ الباب فخرج رجل وكان راعيا للغنم، فجلسنا عنده وكان يتحدث بحديث كأنه من كبار القوم الذين سلكوا هذا الطريق، ومن جملة ما تضمنه الحديث، أنه قد اتخذ رعاية الأغنام ذريعة لهيم في الصحراء، ليخلو مع ذِكر الإمام عليه السلام مبديا أشواقه وحنينه اليه.

وقد اتفق في هذه الجلسة أن قرأ الشيخ أبياتا عن الصاحب عجل الله فرجه بصوت غير شجي، ولكن الرجل انقلب حاله وبكى وخرج من البيت

ثم رجع، فسألناه عن السبب الذي أورثه هذا الحب، فأجاب أن العالم الفلاني -من علماء مشهد- استوطن هذه القرية فصرنا جمعا حوله، فغرس في قلوبنا حب الإمام عليه السلام وربّانا على التعلق الشديد به.. فعلى طالب العلم أن يسير على هذا النهج في رحاب صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف لينال بذلك ما يبتغيه من الخير والصلاح.

(معيار المطالعة)

إن متابعة بعض جزئيات الأمور مما يجري في العالم، قد تصرف الطالب عن مطالعة الدروس والأبحاث العلمية وتجعله يتمحض لمتابعة الأنباء ومستجداتها مما يشغله عن طلب العلم والذي من أجله هجر الديار والأوطان.. وهذا لا ينافي أصل الإهتمام بأمور المسلمين، ومعرفة الأعداء لئلا تهجم عليه اللوابس، وتهيئة نفسه لقيادة الأمة يوماً مّا بعد اجتماع جميع المؤهلات، والتي من أجلها طرحنا هذه الأبحاث.

وفي إطار الإقتداء بالعلماء؛ فلقد دخل على السيد الخوئي رحمه الله أحد تلامذته في ظل الأزمة السياسية الضارمة بلظاها في النجف، فوجده منشغلاً بالكتابة والتأليف فقال له: كيف يروم لكم أن تنشغلوا بالكتابة والتأليف مع هذه الأوضاع المتأزمة؟ فقال: أنا أسعى لأن أكون متصفا بهذه الصفة الإلهية «**لا يشغله شأن عن شأن**»[1].

وعلى الطالب عند المطالعة أن لا ينصرف إلى شيء آخر يشتت

---

١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٥٤.

ذهنه فينفتل تركيزه، و سرّ النجاح في إتقان المطالعة يكمن في إتقان الصلاة، فمن أتقن صلاته أتقن مطالعة كل كتبه الدراسية، لأن ملاك التركيز فيهما واحد، الا وهي القدرة على ضبط الخواطر والهواجس.

(قاعدة الإتقان)

إن على طالب العلم أن يتقن دراسة المادة في كل المراحل العلمية التي يمر بها على شاكلة واحدة: تعلما وتعليما ومباحثة من منطلق «**حتى تكون أعمالي وأورادي كلها وردا واحدا**»[1].

وقد سمعت المرحوم الشيخ بهجت ﷺ يقول إن المعيار الأصل في فهم وإتقان المادة، يكمن في أن يملك الطالب القدرة على تدريس المادة فور الإنتهاء من دراستها. فعلى سبيل المثال لو أتم أحدهم كتاب اللمعة وادعى أنه أتقنه جيدا، فلازم ذلك كونه مستعدا لتدريسه وذلك فور الإنتهاء منه، كما كان يطلب ﷺ أن لا يكرر أحدهم تدريس مادة واحدة، بل ينوع ليشمل كل الكتب التي تتم دراستها في الحوزة..

وعلى الطالب أن يستثمر هذه الفرصة من عمره في إتقان تحصيله العلمي، فقد تغرّب عن وطنه، وترك أحبته ليشتغل - صِرفا -بطلب العلم، فإذا أهمل في دراسته فما هي الفائدة التي تُرجى منه؟! والحال أنّ عيون والديه وذويه تنتظره بفارغ الصبر، وكيف سيخدم مجتمعه ويقرّ عين من كانوا ينتظرونه؟!.. وكم تكون خيبة الامل عندما يرجع إلى بلاده بيد خاوية، ليس عنده ما يقدمه في إطار العلم والعمل !

---

١) فقرة من دعاء كميل.

وعلى طالب العلم - وإن كان قد اختار أدنى الأهداف في إطار المستويات العلمية - أن يتقن السطوح وشيئا من الخارج. فعلى سبيل المثال قد يقال وفقا لما هو متعارف عند البعض، إن أقل فروع خدمة الدين والتي تحتاج إلى تخصص علمي هي الخطابة[1] ولكن هناك فرق بين الخطيب المحقق وغيره ممن يحفظ خطابات الغير، أو أتم السطوح من غير إتقان، فالحال معلوم في مَن يتألق في خطابته ومن لا يتألق، وخاصة في ظل تنامي وعي الجمهور المتلقي هذه الايام، وكثرة المبدعين في هذا المجال.

وما دام المهاجر إلى الله تعالى ورسوله، قد شدّ الرحال وتغرّب عن البلاد وفارق الأحبة، فلا يجعلنّ هدفه أقل من سطح متقن، مع سنة أو سنتين في البحث الخارج، فلا يخرج من الحوزة وهو لا يعرف الجوّ العام الذي يطرح في البحث الخارج.

ومما يوجب الأسف أن البعض يدرس المقدمات والسطوح في عشر سنوات مثلا، ثم إذا بقي عليه سنة أو سنتان من البحث التخصصي، يستعجل في الأمر ويختم مسيرته العلمية، وليس معه شيء من بركات البحث الخارج.

ومن المعلوم أن من ارتفع مستوى طموحه فإنه ستعلو همّته بقدرها، فعلى سبيل المثال نقول: لو أن أحدهم قطع مسافة طويلة

---

١) ولسنا - لا سمح الله - بصدد الإستنقاص من مقام الخطابة، فان ما يعتليه الخطيب منسوب إلى من كان سببا في الهداية الخاصة والعامة لهذه الأمة، وهو الذي يعد من بركات ذلك الامام الشهيد عليه السلام الذي هو مصباح هداية وسفينة نجاة.

ثم قطع نصفها وبقي عليه النصف الآخر، فإنه سيتحفز لإتمام المسافة المتبقية للوصول إلى الهدف المنظور، ولكن لو نوى سيرا قصيرا وهو مسترخ في همته فإنه قد يمشي قليلا ثم يتعب، لقصر هدفه إذ بسببه تضعف الهمة والحافز، وعلى ذلك فمن كانت همّته عالية، سهل عليه الأمر في إتمام مسيرته العلمية، مقترنا بالموفقية والنجاح وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه: ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النية[1].

حضور الطالب والأستاذ

وليكن الشعار الذي نتخذه في مسيرتنا العلمية، هو الحضور الجاد والمنضبط للدرس -متعلّما ومعلّما- فعلى الطالب أن يلتزم الحضور إلى مجلس الدرس، فهو محراب عبادته، وليترك تلك الحجج الواهية للغياب والتخلف عن الدرس، حتى لو عوض ذلك بالإستماع إلى التسجيل الصوتي، فإن الحضور بين يدي الاستاذ، وفتح باب النقاش معه، بل وحتى النظر إلى وجهه - لو كان مذكِّرا بالله تعالى رؤيته - لا يعوض بالدراسة الآلية.

ولا ينبغي أن يُعطل الدرس - بأي وجه - حتى لو سافر الأستاذ للإرشاد في موسم الحج -مثلا - فليؤت بالبديل في مدة سفره.

وفي إطار نقل سيرة العلماء: فقد سمعت من المرجع المبرور الشيخ البهجة -عليه الرحمة -أن أستاذه المحقق الأصفهاني رحمه الله كان -ذات

---

[1] بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٠٥.

يوم - في بغداد فضاق به الوقت للذهاب إلى النجف لحضور درس أستاذه الآخوند الخراساني ﷺ وكان والده من التجار.فاستأجر له قطارا لكي لا يفوته الدرس، فليتخذ طالب العلم من هذا النموذج اقتداءا حسنا ليوصله إلى الفلاح.

(الأدب مع الكتاب)

إن من جملة الآداب في محور التعاطي مع العلم، هي مراعاة حرمة الكتاب الحامل للعلم، سواء أكان جليسا مقدسا بنفسه - كالقرآن وكتب الحديث - أم لم يكن كذلك، كأي كتاب من كتب المقدمات، فيتوجب صون الحرمة من منطلق حرمة العلم وقداسته.

واستلهاما من عمل العلم والعلماء ووقوفا على سيرتهم النيرة: قد كان أحد العلماء لا يمد رجليه إلى جهة الكتب لئلا يكون متوجها إلى القرآن أو ما شابهه مما يحمل أمرا مقدسا، وكذلك كان أحد العلماء ينهى أن يُوضع على القرآن شيء، وإن كان كتاب دعاء أو سبحة او تربة او غيرها.

فلا بد لطالب العلم أن يرعى حرمة الكتاب، فلا يستند وظهره إلى الكتب والكتيبات التي تحوي على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فليُتنبه.

(هواية طالب العلم)

إن لكل فرد هواية تغمر وجوده منذ عنفوان شبابه إلى كهولة عمره، فالبعض يستهوي جمع الطوابع البريدية مثلاً، والآخر يهوى

ممارسة الرياضة، وآخر يهوى جمع المعلومات من بساتينها المتنوعة فيقطف من كل بستان زهرة في إطار النافع وغير النافع.. ومما ينبغي على طالب العلم هو أن تكون هوايته في مجال بساتين العلم النافع، الذي يزيد من حصيلته العلمية، فإن الإنسان يتقن ما كانت هوايته فيه.

(سيرة العلماء)

إن من المحطات التي ينبغي لطالب العلم أن يقف عندها، ويتزود منها ليستأنف الطريق في مسيره العلمي هي مراجعة سيرة العلماء.

فعليه أن يخصص لهذه السيرة المباركة حصة في أوقات فراغه، ويطالع الكتب التي تصدت لكتابة قصص العلماء والعبر من حياتهم النيرة، لا سيما تلك الكتب التي لها طريق إلى التوثيق.

وفي هذه المحطة نقف عند هذه القصة التاريخية المعبرة، وذلك نقلا عن المرجع السيد شبيري الزنجاني في كتابه قطرة من البحر: وهو أنه في زمان السيد كاظم اليزدي (صاحب العروة) والشيخ الآخوند الخراساني (صاحب الكفاية) وقع نزاع في إيران بين العلماء وكان الناس يعيشون في منزلق صعب جراء الحكومة الظالمة، وما فرضته من الضرائب الضخمة والإلزامية، فاضطر البعض إلى أن يبيع بناته على الطوائف الأخرى، ليؤمّن تلك الضرائب.

وكان الشيخ الآخوند ومن تبعه من العلماء، قد توصلوا إلى أن الطريق لرفع هذه الظلامة، هو العمل بما اصطلح عليه بالمشروطة، فتكون الحكومة الملكية مشروطة بمجلس الشورى، ولكن السيد

اليزدي ومن تبعه من العلماء قد خالف بشدة هذا المبدأ. وذهب إلى أن هذا الطريق يُبقي الحاكم على ظلمه ويعطي لحكومته الشرعية والإعتبار. ورأى أن الطريق لحل هذه المشكلة انما يكون من خلال انتخاب مجموعة من الأفراد، ممن لهم القدرة على التأثير والإقناع، ليتم إلغاء هذه المقررات والقوانين، فاحتدم الخلاف بين أتباع هذين العلَمين، وحمى الأمر بينهما حتى وصل الأمر إلى التلاعن ورمي الآخر بالتهم الواهية، وان كانا هما على درجات عليا من النزاهة والتقوى، وبعيداً عن هذا.

ولكن ما حصل - على ثقله - لم يؤثر على المسيرة العلمية للحوزات الدينية، واستمر الأمر على ما كان عليه وكأن شيئا لم يكن، وكانت هذه الأزمة مقترنة مع الفترة الذهبية من عمر الحوزات العلمية، إذ نبغ فيها من نبغ، وأثرت المكتبة الأصولية والفقهية بالكثير من الثراء العلمي، بينما نرى البعض هذه الايام يطلب الذريعة عندما تتشنج الأوضاع السياسية، فيجعل اضطراب الأمور وتداعيها، مدعاة إلى العزلة عن طلب العلم وإكمال المسيرة العلمية، وينشغل بمتعلقات الوضع وتشنجاته من دون أن يكون له دور فاعل فيها، لخروجه عن دائرة الريادة في سوق تلك الأحداث، والناظر إلى سيرة العلماء يجد كيف قفزوا إلى الثريا في أصعب الأزمات..

فعلى طالب العلم أن يسير على خطاهم ليصل إلى القمة مهما كانت الظروف قاسية والتداعيات مرهقة، وعليه أن يصبر على كل التحديات والصعوبات التي تعترض طريقه، ومن هذه العقبات الفقر والفاقة، والقارئ لسيرة العلماء وما كان عليه وضعهم

المعيشي في ظلال الفترات القاحلة من حياة الحوزة، يرى كيف أنهم تجاوزوا هذه العقبة بأفضل ما يكون، وشعارهم في ذلك: اطلب العلم في الفقر والغربة والعزوبة، ويجمعها جميعا تقليل الشواغل والمذهلات.

ولنقف عند هذه المحطة لنستلهم منها العبرة؛ فقد كان أحد العلماء مصابا بضائقة شديدة وكان من مخالفي الشيخ الآخوند بل وممن يلعنه فلقي في طريقه - ذات يوم - أحد مقلدي الشيخ ومعه مبلغ من الحقوق فارتأى أن يأخذه إلى بيت الشيخ ليستأذنه في أخذ هذا المال.

وعندما وصلوا إلى البيت وطرقوا الباب خرج الشيخ لاستقبالهم فانتابه التعجب مما قد رآه، فهذا ممن يخالفه صراما ويعلنه صراحا، وها هو الآن قد قدم لزيارته، ليطلب الإجازة في أخذ هذا الوجه الشرعي منه، وإذا به يفاجأ بالآخوند وهو يثني عليه بالثناء الجميل وقال لمقلده: صرف هذا المال لهذا العالم لا يحتاج إلى إجازة منا، فقدّمه إليه. ففرح بذلك وأخذ المال، وبعد ذلك انقلب أمره إلى أن صار من أتباع الشيخ ومريديه، ولكن ما كان من الشيخ الآخوند إلا أن قال له: لم غيرت عقيدتك التي كنت عليها؟! فإذا كانت عداوتك من منطلق الدين والشريعة فلم استبدلت الموقف؟! عُد إلى مسلكك السابق يعني بذلك موقفه العدائي منه.

وقد يكون علاج المشاكل التي تعترض طريق طالب العلم أيام تحصيله سهلا، ولكن عندما يتصدى لخدمة المجتمع، ويصبح رمزا من رموزه فإنه تشقّ عليه الأمور، وينحدر في منزلق التحديات

والصعوبات، وتتفاقم عنده المشكلات وتنبثق له العداوات.

فعليه أن يعالج هذه التداعيات مراعاة لمبدأ الرضا والغضب الإلهي، مستنا بسيرة العلماء الصالحين، فإذا واجهته سيئة يقابلها بالحسنة، ويوطّن نفسه على أن القلوب والأنفس ليست في يده ليستحوذ عليها، فيقطع شرورها عن نفسه.. وما له إلا أن يدعو الله عز وجل، ليليّن هذه القلوب والأنفس ويجلب مودتها اليه.

وليُعلم أن الأصل في هذه التداعيات ليس من شرور إخوانه المؤمنين، بل من وساوس ومكائد شياطينهم، فليرأف بحال إخوانه ويجعل عداوته مع هؤلاء الشياطين، وليجتهد في قطع حبائل الشياطين عنهم، فيرِد على الله سبحانه وتعالى بقلب سليم، وهو الذي عليه مدار الحساب في يوم الآخرة.

الفصل الثاني
في إطار المعوقات

(المنزلق الشيطاني)

(الهاجس الشيطاني)

(الخلج الموبق)

(منحدر الوهم)

(آفة الاغتراب)

(مخافة الرزق)

(جانب التقصير)

(المنزلق الشيطاني)

وليَعلم طالب العلم أن عين الشيطان عليه محدّقة في كل حركاته وسكناته، ليوقعه في منزلق الهفوات والنزوات، فتتعدى آثار هزيمته بعد ذلك إلى أفراد المجتمع، ومثَل ذلك كمثل العدو الذي إذا أراد أن يدسّ السم إلى كل أفراد البلدة فإنه يضع سما في خزانة مياه شربهم، ليتسمم بذلك قاطبة أهل البلد، فالشيطان هو العدو الذي يريد القضاء على البلدة برمّتها، وطالب العلم هو مصدر ريِّهم، وحوزته التي يدرس فيها هو خزانة علمه، فإن دُسّ السم فيها تسمم بذلك الجميع، فيموتون صرعى من دون عناء.

وفي إطار الشاهد على ما ذكرناه آنفا، ما سمعتُها من مؤمنة كانت بعيدة عن الدين، ثم اهتدت فتجلى لها الشيطان على صورته الموحشة في عالم الرؤيا فسألته من أنت؟!.. فقالت: أنا إبليس فقال له: ماذا تريد مني؟.. فقال: لن أدعنَّك تسيرين في زمر الخير، وسآتينَّك من كل الجهات والمنافذ حتى أغوينَّك وأحرفنَّك عن الطريق، فقالت له: أنا مقاومة وسأنتصر عليك إن شاء الله !.. فقال: لا أفارقنَّك أبدا

حتى لو لم أتمكن من هزيمتك، لأغوينَّ مَن حولك انتقاما منكِ بعد الياس منك!

ثم نقلت كيف أنها تزوجت وبعد مدة من الزمن تعكر صفو عيشها، وانقلبت الأمور عليها، فصار زوجها كافرا يهين القرآن أمام عينيها، وانحرفت ابنتها عن الإستقامة إلى العوج، وتفرق عنها أولادها، فأصبحت وحيدة غريبة تعاني آلامها لوحدها، فعندها علمت أن الشيطان قد وفى بوعيده!

فلا ينامنَّ طالب العلم قرير العين، ويعوّل على أن الحوزة محمية من حبائل الشيطان ومكائده، بل ليكن ملتفتا إلى أن الحماية - التي يتكئ عليها - لا تأتي من وراء دراسة الكتب، وإنما تتبلور من خلال العبودية الحقة لله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[1].

إن الشيطان لا يحتاج إلى أن تُفتح له كل المنافذ ليدخل من خلالها إلى قلب الرجل، بل يكفيه الثقب الصغير ليدخل منه، فإذا وقعت شهوة واحدة أو حصل غضب أو غلب عليه وهم واحد، كان ذلك كافيا لنفوذ الشيطان من خلال ذلك.

إن العبد الحقيقي هو الذي يغلق كل منافذه على الشيطان الذي يرتقب الفرصة لينفذ إلى قلبه، فليتوقنَّ طالب العلم الحذِر، وليستعذنَّ دوما من همزات الشيطان ونفثاته استعاذة حقيقية.

---

١) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(الهاجس الشيطاني)

قد يصاب طالب العلم بهاجس يختلج في صدره قائلا له: بأنه درس عدة سنوات في الحوزة ولا زال في أدنى رتبها العلمية، فهو لا زال في إطار المقامات -شويخا - يعيش بين أمواج الفقر، وقد تعسر عليه الزواج، ويقيس نفسه إلى الطالب الجامعي -والذي قد يكون زميلا له- قد درس عدة سنوات أيضا، إلا أنه قد خُتم له بالوظيفة المنظورة، والوضع المادي المرموق، وقد توفق للزواج الحسن.

إن هذه الهواجس كلها منبثقة من وساوس الشيطان الذي ينسيه ذكر ربه، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين والذي تكفل رزق العباد جميعا خصوصا طالب العلم، لأنه من مصاديق من آثر هوى ربه على هوى نفسه، وذلك بتركه المكاسب الدنيوية، طلبا لما عند الله تعالى.

ففي الحديث القدسي: **«وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني، لا يؤْثِر عبد هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي، وكفَّلتُ السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهيَ راغمة»**[1].

وقد شاهدنا بالوجدان أن بعض من ترك الحوزة للأعذار المادية، قد تورط بأنواع البلاء فلم يرَ بعدَ ذلك خيرا في حياته.

ومع ذلك فإن هذا الهاجس له جنبتان في إطار الإيجاب والسلب: فإيجابه أنه يعطي الحافز لمحاولة جبران التقصير والإنهماك على

---

١) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ٧٨.

الدرس والتعويض عن الماضي الغابر، لتفتح له آفاق الدنيا والاخرة. وسلبه أنه يوجب حالة من الإحباط واليأس في الذات، فليراعَ ذلك أيضا.

(الخَلَج الموبق)

إن من المشوشات في خلجانات طالب العلم، هي وقفات التفكر والتأمل في النظرة المستقبلية في فروع الخدمة، وأنه إذا أتم تحصيله العلمي ورجع إلى البلاد ماذا سيؤول إليه من الأمر؟!.. أيحظى بالتوفيق في إطار العمل السياسي، أم التحقيق العلمي، أم الخطابة والمنبر؟!.

ولا يبعد أن يكون ذلك من حبائل الشيطان الخفية فيقع في مصيدتها، لا سيما أن الناظر إلى هذه الرواية يجد المباينة مع هذا المختلَج الباطني: فعن المولى أمير المؤمنين عليه السلام في غرر حكمه: «**مَن تعلم العلم للعمل به لم يوحشه كساده**»[1].

وليكن المبتَغى الذي يرومه طالب العلم، هو أن يصطفيه الله عز وجل لنفسه، مصداقا لقوله تعالى ذِكره: ﴿وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي﴾[2] فكل المقامات والعناوين التي يحوزها أحدنا بين العباد، يبقى دون مقام الإصطفاء الإلهي، بمعنى أن يصطنعه الله تعالى لنفسه كما صار لموسى عليه السلام.

والقارئ لسيرة الأنبياء عليهم السلام في محطات التاريخ، يجد الكم الكبير في

---

١) عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٤٥، ٧٨٢٣.

٢) سورة طه: الآية ٤١.

العدد، فقد بلغوا مائة ألفا وأربعة وعشرين ألفا، ولكنهم دُثر ذكرهم ولم يصل الينا من اخبارهم إلا النزر اليسير، بما فيه خبر انبياء أولى العزم عليهم السلام وهذا لا يُنقص من قدْر مَن لم يذكر شيئا، فالمناط في ذلك اصطفاء الله جل ذِكره لهم، وليس شرطا فيه أن يبزغ نورهم في ناظر البشرية جمعاء، و يخلّد ذكرهم في بارز التاريخ.

فعلى طالب العلم - في مدة انشغاله بالتحصيل -أن لا يروم لنفسه هدفا بعينه، فيرسم خارطة العمل في فكره، فيتقرب لجهة بشرية ليحجز مقعده لمسيرته العملية مستقبلا، وتصطدم هذه التداعيات مع مبدأ التوكل على الله عز وجل، فليوطن طالب العلم نفسه على أن الله تبارك وتعالى هو أحكم الحاكمين، وأعلم بالمصالح والمفاسد، فيختار له القالب الأمثل لنشاطه الدعوي والعلمي، وفقا لمصلحته في العاجل والآجل.

ولقد تجلت هذه الخصلة الحميدة في سير الأعلام، وذلك أنه بعد وفاة صاحب الجواهر اجتمع القوم على الشيخ الأنصاري لتُفضى إليه المرجعية، ويُسلم له زمام الأمر، فأبى الشيخ ذلك قاطعا وأوكلهم إلى أحد علماء مازندران من زملائه في مراحل التحصيل الذي كان كفرس رهان له، ولكن اتفقت كلمتهم على الشيخ الاعظم، فأُجبر بعد ذلك على قبول المرجعية وتسلم زمامها.

فليقتفِ طالب العلم هذه الآثار النيرة، وليكن كل همه في خلجات فكره، هو تحقيق القبول والرضا الإلهي في دائرة الجوارح والجوانح معا، فهذا الهدف هو الذي يُرام ويُبتغى.

قد يعتري طالب العلم القلق ويراوده الغم، جراء منام قد انتابه فيغرق في بحر الوهم والخيال، والحال أن على طالب العلم أن يُجري ميزان العقل في الحكم على هذه المنامات، وما هو مترتب عليها من كونها في دائرة الحجية أو هي خارجة عنها.

والأصل في حجية المنامات - لو كانت حجة على نحو الجملة -هو أن يكون مورثا يقينا أو اطمئنانا، فتثبت عند ذلك الحجية لها، والا كان مورثا للظن الذي لا حجة فيه، فمن رأى مناماً في إطار السلب أو الإيجاب، عليه أن يجري هذه القاعدة في المقام.

ومما لا يخفى على الناظر إلى عالم المنامات، أن الأوهام والخيالات متهاجمة فيها - إن لم نقل إنها غالبة فيها - فأنّى يكون المنام مورثا لليقين أو الاطمئنان؟!

وفي إطار التجارب الطبية في ما يرتبط بالمخ البشري، فقد ثبت بالتجربة الميدانية أنه قد يعتريه بعض العوامل الخارجية، فيوقع صاحبه في الوهم والخيال، وحينئذ قد يرى شيئا غريبا فيظن أنه قد فُتح له باب في المكاشفات، ويتجلى هذا الواقع أكثر لمن عاين البعض ممن انتابتهم الأمراض النفسية، فيستسلمون لوهمهم وخيالهم.

ومما يؤسف له أن البعض قد يتصدى لتفسير المنامات التي لا يلازمها اليقين، بل يلزمها الوهم والخيال فيوقع الآخر في تصديق مجانب للواقع، وليس وراءه الا التخرص والحدس.

والبعض قد ينبهر بتلك الإستخارات التفصيلية، فيظن أن

صاحبها متصل بعالم الغيب فيحكم عليها بالحجية، ولو تأمل بميزان العقل لوجد أن هذا التفصيل في الغالب يكمن في الكليات التي قد تصدق على كل الموضوعات، وقد يتفق أن يكون التفصيل مغايراً للموضوع تماما.

وعلى الباحث لميزان الحق أن يتأمل في هذه الرواية، ويتوّج ذلك بالعمل «**إياك أن تنصب رجلا دون الحجة فتصدقه في كل ما قال**»[1].

(آفة الاغتراب)

قد يصاب طالب العلم بحالة من الضيق والكآبة جراء البعد عن الوطن و الأحبة، فتنتابه الوحشة ويغدو في بيئة العزلة والإنفراد، فينبغي عليه أن يعالج هذه الحالة بأسلوب عملي، كأن يبحث عن صديق مؤنس له يتناغم معه، ويوافقه في الطبع والمزاج فيخفف بذلك وطأة الاغتراب.

وأما العلاج التام فيكمن في تربية النفس في طريق الأنس بالله تعالى، مستنا بسنن الصديقين والعارفين، فيعيش في أنس وارتياح تامين، وإن كان في جزيرة نائية.

و اخبرني أحدهم كان قد ألقي في سجون الظالمين في المطبق الإنفرادي، فعندما أفرج عنه اعتراه الشوق والحنين لذلك السجن الذي كان فيه، مغمورا بالخلوة مع الله تعالى، فكان السجن أحب إليه لما استلهمه من الأنس الإلهي.

---

١) الكافي: ج ٢، ص ٢٩٨؛ ح ٥.

فينبغي على طالب العلم أن يجعل تعلقه بالمؤنس الواقعي، وهو الله تعالى ذِكره، والذي يكون معه في كل مراحل وجوده، ولا يفارقه طرفة عين، ويترك تعلقه بالغير الذي إن كان معه فهو في دائرة الوجود الدنيوي، والذي يعتريه الفراق والبين.

وسبيل الأنس مع الله عز وجل هو القيام في جوف الليل والإنقطاع إليه، فعند ذلك يُستلهم الأنس الإلهي الذي لا تكرار في تجلياته، بخلاف غيره من الأنس مع الفانيات.

وليتخذ الذريعة من هذه الغربة الظاهرية، للتفرغ للانشغالات العلمية في إطار الدرس والمطالعة، لا أن يكون ذلك موجبا للبعد عن التوفيقات العلمية، وتطويق النفس بالحزن والكرب.

(مخافة الرزق)

على طالب العلم أن لا يبالي بالمال والرزق كيف يتأتّى له، فقد يوقعه الشيطان في مصيدته فيدخل على قلبه مخافة الفقر كما يقول القرآن الكريم، فعليه أن يحذر هذه الوساوس الموبقة.

ومن جملة الشواهد المتكثرة: هو ما سمعناه عن الشيخ باقر شريف القرشي رحمه الله تعالى، في لقاء لنا مع ولده أنه قال عن لسان والده: كنت طالبا في حوزة النجف وألمت بي ضائقة مالية، فذهبت إلى صديق والدي في الحلة لطلب المساعدة منه، ولكني عندما التقيت به لم يطاوعني لساني لأذكر - عنده - حاجتي فقررت الرجوع إلى النجف، ولم يكن عندي من المال ما يكفي للأجرة المتعارفة، وكنت واقفا على الطريق مدة من الزمن، حتى أقبلت شاحنة تحمل

قطيعا من الغنم، فأشرت إلي سائقها فتوقف، وقلت له إن هذا كل المال الذي عندي للأجرة فأركبني، وفي أثناء المسير استفسر السائق من صاحب الأغنام عن أنه ماذا يريد الصنع بهذا القطيع؟!.. فقال: هي نذر لأمير المؤمنين عليه السلام فقال له: لم لا تعطها لهذا الشيخ؟! فارتأى ذلك ووافق عليها.

وعند ما وصلنا إلى النجف وأعطاني القطيع، ذهبت إلى سوق القصابين وبعت الأغنام كلها وربحت ربحا كبيرا، وهكذا تأتي الأرزاق من حيث لا يحتسب!

(جانب التقصير)

إن طالب العلم لكثيرا ما يعتريه التقصير في إطار الدرس والمطالعة وما يرتبط بهما، فليتخذ من ذلك ذريعةً لتعويض ما قد فات، وجبر الكسر في ما قد سلف.

وطالب العلم مضافا على كثرة تقصيره في الجانب العلمي، فإن تقصيره في الجانب العملي أكثر من ذلك، فقد وجدنا حالات عند عوام الناس لم نجدها عند بعض الطلبة؛ فقد كان أحد الأطباء من ذوي التخصصات النادرة وفي دولة اجنبية، وصل إلى مقامات عالية حتى أنه كان قلقا حول زواجه خوفا من أن تشغله الزوجة عن ذكر الله عز وجل، وقد قال لنا ذات يوم إنه عازم في شهر رمضان للذهاب إلى منطقة نائية في شمال تلك البلاد، ليخلو مع الله سبحانه وتعالى، ابتغاء أن يصل إلى هذا المقام وهو أن تصير كل أنفاسه لله تعالى ذِكره مستحضرا معيته في كل وقت؛ وكانت إحدى الأخوات

المؤمنات في صدد أن تقرأ في كل ساعة دعاء الفرج حتى في الليل ليتحقق قولها (وفي كل ساعة) في ميدان الواقع. والشواهد على ذلك لكثيرة. في أن بعض العوام فاقوا بعض الخواص في طي هذه المقامات العالية.

ومما لا يخفى أن هذه الإلتفاتات لا تأتي من العدم. وأن التوسل الخالص بأولياء الله عليهم السلام لرفع حالة التقصير وزوال العقبات لهو من أسرع الطرق لنيل المراد: فقد كان أحد الطلبة في حوزة النجف لا يستوعب درسه ولا يعيه. فذهب إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام متوسلا به. فرأى في عالم المنام أن الأمير عليه السلام قد قرأ البسملة في أذنه. فذهب في يوم غد إلى مجلس الدرس. فإذا به قد انقلب حاله وأخذ يشكل على خلاف عادته. فقال له الأستاذ: إن الذي قرأ عليك البسملة قد قرأ علينا إلى قوله تعالى ﴿وَ لاَ الضَّالِّينَ﴾ فمهلك لا زلت في أول الطريق.

وعلى طالب العلم أن يتفكر في السنوات التي قضاها في التحصيل. فقد تكون في الظاهر عشر سنوات ولكنها سنتان في الحقيقة. و قد يبلغ المرء الستين من عمره. ولكنه يساوق المراهق الذي قرب عهده بالبلوغ والتكليف من جهة حصيلته العلمية والعملية.. وقد سمعت أحد أعلام المراجع يقول: بعض الناس أطفال لهم لحى.

فليتأمل طالب العلم في واقع العمر الذي صرفه في التحصيل. فكم يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقرّ له بذاكا !.. وكان ذكر أحد

العلماء: «**يا مدرك كل فوت**»[1] أي رب !.. إن كان مني التفويت والتقصير فأنت الجابر لذلك.

١) مفاتيح الجنان: فقرة من دعاء علقمة.

الباب الثالث

خارطة الطريق إلى المسيرة العملية

الفصل الأول: في إطار القواعد والأسس

الفصل الثاني: فى إطار الآداب والمقررات

الفصل الثالث: في إطار المقومات

الفصل الرابع: في إطار المعوقات

الفصل الأول
في إطار القواعد والأسس

(قاعدة الترشّح)

(قاعدة الإحراق)

(النظرة إلى الوجود)

(المحور العملي)

(الميزان الجامع)

(محرك الوجود)

(مدينة الحياة)

(المعية الإلهية)

(الإفهام الإلهي)

(مبدأ الاستجداء)

(الطفرة الروحية)

(الشراب الطهور)

(الفيصل بين الحال والمقام)

(الفيصل بين القرب الظاهري والباطني)

(الاستقرار الباطني)

(الأركان الخمسة لترويض النفس)

(قاعدة الترشّح)

إن لكل علم قواعد وأسساً بمراعاتها يعطي ذلك العلم ثماره، كما نجد ذلك في علم الأصول والفقه والنحو والصرف، فالأمر كذلك في حركتنا إلى الله عز وجل، فهناك قواعد وأسس يتعهد ذكرها علم الأخلاق والسلوك إليه تعالى، فمن المعلوم أن أية حركة لا تؤتي ثمارها من غير كليات وقوانين مرشدة إلى الطريق.

ومن جملة هذه القواعد (قاعدة الترشّح) والمراد منها أن يترشح الحب الإلهي على كل متعلقاته، فالبعض إذا أحب أحدا أحب كل ما يرتبط به، وعلى سبيل المثال إذا رأى الطالب غلاما في الشارع فقد لا يهمه الأمر، ولكن إذا قيل له: إن هذا ابن أستاذك، فحبه للأستاذ يترشّح على ابنه.

وقد يتفق أن البعض يقف على دار من يرى فيه قربا إلى الله تعالى، فكان يقبل باب الدار، فترشّح هذا الحب على الباب المتعلق بدار المحبوب.

وكلما زاد الحب عند المرء اتسعت دائرة الترشّح لديه، حتى يصل إلى درجة يترشّح حبه على المتعلقات البعيدة للمحبوب.. ويتجلى هذا الواقع أكثر لمن رأى عاشقا قد أحب فتاة من دولة أجنبية، فكيف يغمره الشوق لتعلم لغتها في أسرع وقت ممكن مع الإتقان، حتى يبدي حبه لها ويفهم منها ماذا تريد منه.

(قاعدة الإحراق)

إن المرأة عندما تنسى طبخها في القدر على النار حتى يحترق، فإنه يصير متفحما وبلون واحد لا تمايز فيه، وكذا طالب العلم عليه أن يجعل شؤونه ونشاطاته كلها -بلون واحد يتمثل في قالب الرضا الإلهي، فيكون في كل حركاته وسكناته ناظرا إلى إرادة الله عز وجل، وهو ما يعبر عنه البعض قائلا: إن عين الولى الصالح على رضا المولى في كل ايام حياته.

وفي إطار الشواهد المتكثرة: إن أحدهم التزم بختمة أربعينية[1] حتى وصل به المقام إلى يوم الختام الذي كان يرتقب فيه النتيجة، ولكنه فوجئ بمجيئ ضيف له فخيّر نفسه بين أن يكون في خدمة الضيف أو أن يكمل ختمته فقال: يا رب مرادك في أي الأمرين؟!. فرأى أن خدمة الضيف أولى من إكمال الختمة، فأعطي ما كان يريد من دون إكمال ختمته لما كانت عينه على مراد مولاه.

---

١) ولا بد أن نؤكد هنا أننا لسنا مع الختمات التي لا طريق لها مأثور في الشريعة، وحتى التي لها طريق مأثور لا بد ان تؤدى مع الالتفات الاجمالي، والا فان مجرد اللقلقة لا يترتب عليها الأثر!

إن طالب العلم إذا وصل إلى هذه المرحلة فانه سيرتاح بالُه، ولا يهمه كم العمل ولا نوعه ما دام قد رضي المولى بعمله.

(النظرة إلى الوجود)

إن من موجبات رفع التضاد والتزاحم في النظرة إلى عناصر الحياة هي إعمال النظرة الطولية، فعندما ينظر المرء إلى أمرين نظرة عرضية فإنه لا يمكنه الجمع بينهما، فاذا كانت هناك صورة عن اليمين وصورة عن الشمال فانه لا يمكن التوجه إليهما في آن واحد، والقرآن الكريم قد حسم الأمر في قوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1].

فإن القلب - وهو من بدائع الخلق - لا يتحمل إلا محبوبا واحدا حتى لو تبدل هذا المحبوب من ساعة إلى ساعة؛ فطالب العلم مثلا عندما يأتيه الولد البكر ويضعه على صدره فإن في تلك الساعة يدخل حبّ الولد في قلبه، وعندما يذهب إلى الحرم بعدها بساعة و يصلي بتوجه في تلك الساعة، فإن رب العالمين يملأ قلبه بالحبّ الإلهي، وكذا عندما يرجع إلى المنزل ويفتح كتاب الدرس فإنه يجعل همه في فهم الكتاب فيستشعر حب العلم في قلبه، وهكذا فإن المحبوب يتبدل في دائرة الزمان والمكان.

والسؤال الجوهري الآن هو أنه كيف تحل هذه المشكلة؟!.. والجواب نجدها في القران الكريم في جملة مختصرة حيث يصف

---

١) سورة الاحزاب: الآية ٤.

المؤمنين قائلا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1] ولم يرد هذا التعبير هنا في حق الرسل والأنبياء أو المُخلصين بل ورد التعبير {والذين آمنوا} يعني هذا الحب الذي في قلوبهم تجاه المولى هو الحب الأشد، ولا ينافي ذلك وجود محبوبات أخرى في البين.

وحينئذ نقول إنه ليس المطلوب منا عدم حب الغير أبدا، فهذا خلاف الواقع ومقتضى الوجدان، ولكن النظرة المثالية تكمن في أن لا يحب المرء أحدا إلا الله تعالى، بالمعنى المطلق للكلمة في إطار النظرة الطولية للأمور والأشياء، فلا ينافي في سياق هذا الحب الطولي أن يحب الانسان أحدا لأن الله تعالى يحبه أو قد أمر الله بحبه، بل هو مطلوب كما في مناجاة المحبين «**أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصلني إلى قربك**» و قد ورد مضمون ملفت - كشاهد على ما نحن فيه - في هذا الدعاء الذي ما رأينا مثله في مضامين الأدعية «**اللهم واجعلنا ممن اخلص لك بعمله وأحبك في جميع خلقك**»[2].

يعني يا رب أنا أحب جميع الخلق - سواء المؤمن منهم والفاسق - فأحب المؤمن لإيمانه وأحب الفاسق من أجل هدايته، وقد يصل الإنسان إلى درجة من شفافية الروح حتى بالنسبة إلى غير المسلم ممّن لم يكن معاندا ومحاربا - كأن يراه في جزيرة نائية - فإنه يحبه لأنه خلق من خلق الله تعالى كما يقول الشاعر:أنا للعالم عاشق..

---

١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

٢) بحار الأنوار: ج٨٧، ص ٣٣٨.

حيث منه الكون أجمع.

والبعض عندما يقطف وردة يشمها ويقبلها فما المانع في ذلك؟!.. إذ يقول في نفسه: هذه لوحة الله تعالى عندي، فينظر إلى الوردة على أنها صورة مرسومة من إبداعات الله سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم أن الذي ينظر إلى الوجود بهذا المعنى، كم تتغير نظرته إلى الناس عندما يريد تفريج كربهم؟!.. وكم سيمتلك الشفقة على العباد عندما يريد هدايتهم؟!.. وكم سيكون حريصا على إخوانه من طلبة العلم عندما يريد تدريسهم؟!.. والجامع لكل ذلك هو أنه ينظر إلى الخلق على أنهم جميعا عيال الله تعالى، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

وهكذا فإن طالب العلم إذا تجلت عنده هذه المعاني، فإنه ينظر إلى جميع ما يدرس في الحوزة بنظرة واحدة، ما دامت كلها موصلة إلى الله تعالى على اختلاف درجات الموصلية، وذلك بدء بكتب النحو والصرف وانتهاء بكتب الفقه والأصول، بل إنه أيضا ينظر إلى الأمكنة بالمنظار نفسه، فلا يتألق في المشاهد المشرفة فقط، ليعود إلى وطنه فاقدا لمشاعر الإقبال التي انتابته في مشاهدهم عليهم السلام.

إن على طالب العلم أن يجري قاعدة الإحراق -كما مر ذكره -ليجعل كل شيء في القدر يحترق ويصبح كل ما فيه ذا لون واحد، فالذي جعل كل عناصر الوجود تحت نار الحب الإلهي، فإنه ينظر إلى الوجود بنظرة واحدة، بل يصل إلى درجة أعلى من ذلك، وهو أنه لا تختلف عنده الدنيا والبرزخ والقيامة، وذلك لأنه في

محضر الله تبارك وتعالى يعيشها في كل النشآت.. فيستشعر هذه الحقيقة: وهي أنه كان في قاعة تسمى الدنيا، ثم خرج إلى قاعة أخرى تسمى البرزخ، ثم خرج إلى قاعة تسمى القيامة، فلم يختلف عنده الأمر، لاستحضاره الدائم للمعية الإلهية في مكان متعدد القاعات.

والى هذه الحقيقة يشير إمام الواصلين إلى الله تعالى علي عليه السلام قائلا: «**الجلسة في المسجد خير لي من الجلسة في الجنة فإن الجنة فيها رضا نفسي والجامع فيه رضا ربي**»[1].

(المحور العملي)

إن لكل امرئ في جملة أعماله محورا يرتكز عليه كل نشاطه، وهو الذي يُلحظ في ساعتين من ساعات الدنيا: ساعة الصلاة إذا أحرم في عرصاتها، وساعة الإحتضار إذا صار في سكراتها.

ويتباين المحور في منظومة حركة الحياة، لتباين الوجهة التي يوليها صاحبها: فالبعض يكمن محوره في جمع الأموال والدراهم، والآخر في طلب الجاه والسلطة، وآخر في طلب شهوة النساء ولذاتها، فيسلكون بذلك سبيل الضلال في دائرة البعد عن سبيل الله ﴿الَّذينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ في‏ ضَلالٍ بَعيدٍ﴾[2] والذي يكون فيه الهلاك، حيث يجعلهم الله تعالى في مطاوي النسيان، وهو احوج ما يكون إلى تذكره تعالى في عرصات القيامة ﴿الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ

١) بحار الأنوار: ج٨٠، ص ٣٦٢.
٢) سورة إبراهيم: الآية ٣.

نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾[1].

وعلى طالب العلم أن يجعل محوره منحصرا في طلب الرضا الإلهي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾[2] فيسلك بذلك إلى سبيل الرشاد في دائرة القرب الإلهي ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبينَ * فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعيمٍ﴾[3].

(الميزان الجامع)

إن على طالب العلم أن يوازن بين الجانب العلمي والعملي، فيجمع بين الدرس والعبادة.. فمن المغالطات القبيحة أن يترك قيام الليل مثلا، بحجة التحضير للدرس، اذ ليس هنالك تعارض في البين وذلك لإعمال الأولوية عند امتناع الجمع، كما ينبغي الإلتفات إلى أنه لا ينبغي أن يغلّب العبادة على التحصيل والمطالعة، فقد رأينا البعض قد ترك طلب العلم ونزع العمامة ولبس لباس التصوف، ثم انحرف عن سواء الطريق.

وعليه أن يقسم وقته ليجمع بين جانب العلم والعمل في إطار الموازنة بين كل جهات التكليف، ففي الرواية: «للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه ولذتها فيما يحل و يجمل»[4].

---

١) سورة الأعراف: الآية ٥١.

٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٧

٣) سورة الواقعة: الآية ٨٨ - ٨٩.

٤) بحار الأنوار: ج٧٤، ص ٤٠٣.

وعليه أن يجمع بين كل المزايا: فلا يترك إقامة النافلة مثلا بدعوى تلاوة القرآن، ولا يترك مطالعة ما ينفع من صنوف المعرفة اللازمة لطالب العلم بدعوى حضور المباحثة، ليجمع بذلك بين إقامة النافلة وتلاوة القرآن، ومطالعة الكتب النافعة وحضور المباحثة، وما له من الوظائف والشؤون، فلا امتناع في الجمع إذا ما تمَّ إعمال الموازنة في تقسيم الوقت.

(محرك الوجود)

إن لكل انسان محركا في وجوده يدفعه إلى هدفه المنظور، ويختلف كل محرك بملاحظة القوة الدافعة لها، فعلى سبيل المثال: كانت السفن الشراعية في الزمن القديم يكمن محركها في الرياح الموسمية التي تفتقد السرعة والتحكم في الحركة، أما السفن الحديثة فيكمن محركها في الماكنة التي تمتاز بالسرعة والتحكم في الحركة.

وطالب العلم إذا كان محركه من قبيل المحرك الشراعي الذي يعمل على رياح الموسم في المحطات العبادية، كشهر رمضان ويوم عرفة وأيام الله تعالى ومختلف المناسبات الدينية، فهذا لا يوصله إلى الغاية والمنتهى وكذا إذا اتخذ من صِرف العلم محركا يسير به إلى مقصده المنشود، فإن العلم المجرد لا يدفع المرء إلى الحركة والسير إلى المقصد، فقد التقينا بأحد أساتذة البحث الخارج في موسم الحج عند المسجد الحرام، فشكى لنا الحال بضعف إقباله على الأعمال، بعد أن درّس مسائل الحج بتفريعاتها المفصلة في بحثه الخارج قبل ذهابه إلى الحج.

وليُعلم أن المحرك الواقعي يكمن في الحب، فمن أحب عملا أتقنه، والمحرك الذي يعول عليه السالك إنما يتمثل في المحبة الإلهية ومتعلقاتها، وتتأتى هذه المحبة من مجموعة طرق منها: طاعة مميزة في مجال مجاهدة النفس، أو تحمل البلاء العظيم، فكثيرا ما تُنال المقامات جراء بلاء عظيم..

وكشاهد في هذا المجال فقد نقل لي أحدهم: انه كان ولي من أولياء الله تعالى أصيب بمرض الرعشة الشديدة، فشد الرحال إلى مدينة مشهد لزيارة الإمام الرؤوف عليه السلام طلبا للشفاء، فعندما وصل المشهد الشريف، وذكر حاجته وأصر في ذلك، كُشف له الغطاء فرأى المولى الرضا عليه السلام قائلا له: طلبتك مجابة ولكن لا مصلحة في الأمر، وأراه بعض المقامات في الجنة وخيّره بين هذه المقامات وحصول الشفاء، فاختار المقامات وقد اتفق عند رجوعه من الزيارة أن اشتد عليه مرضه.

وأسهل الطرق للتوصل إلى هذه المحبة يكمن في قيام الليل ففي الرواية: «إن الوصول إلى الله عز و جل سفر لا يدرك إلا بامتطاء الليل»[1] فالذي لا يتهجد في جوف الليل، ليس عنده ما يقلّه في السفر، ولا ينبغي أن نغفل عن أن صلاة الليل تتفاوت محركاتها، فالبعض يصلي الليل ومحركه كالحمار الهرم، والبعض الآخر محركه كالطائرة النفاثة.

وقد أسرّ الينا أحد كبار التجار - رغم انشغاله بكثره امواله

---

١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٣٨٠.

وعقاره - أن صلاة ليله تستغرق من الوقت ساعة ونصف، وعند طلب العفو ينهار بالبكاء والتفجع، حتى أنه ذات مرة اتفق أنه لم تعتريه هذه الحالة في ليلة من الليالي، فاعتراه الضيق الشديد، وأفهم أن ذلك قد جرى من وراء مزاح وكلام زائد، وهكذا فقد غرّم نفسه لئلا يسلب منه الخير ثانية.. فعلى طالب العلم أن يتأمل ويعتبر من فعل من هو خارج هذه الحوزات المباركة.

(مدينة الحياة)

إن من الأصول المقررة في الكتب الأخلاقية هو بيان طبيعة الحياة ومحاورها، فالإنسان إما: أن يعيش في مدينة سافلة من الإنحطاط والإنحراف، في عزلة مطبقة عن الله عز وجل غارقا في بحر الموبقات، أو أن يعيش في مدينة فاضلة من الرفعة والتكامل في سيرٍ إلى الله سبحانه وتعالى وزلفى إليه، يرتع من منهل الفيض الإلهي في عذب معينه.

ومن رغب في متاع الدنيا وزخرفها من غير قيد يحده ومانع يردعه، عاش رغدا في انبساط وانشراح في تلذذ بمتاع الدنيا، ومن كانت عيشته بين محاريب التهجد والمناجاة، عاش سعيدا في محفل الأنس الإلهي في ميدان الراحة المعنوية، ويجمعها قول الامام الحسن عليه السلام: «المؤمن يتزود والكافر يتمتع»[1].

و لكن مشكلة المشاكل هي أن البعض قد تاه في وسط الطريق بين سبل التسافل والتفاضل، فلا هو يستمتع بمتع أهل الدنيا،

---

١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١١٢.

وهو أيضا لم يصل إلى مرحلة الإستقرار في ظلال المدينة الفاضلة، فهو كمن خرج من بلده ولم يصل إلى البلد الآخر، فتنتقم منه قطاع الطرق من الأبالسة، فيُحرم بذلك سعادة الدارين.. فعلى طالب العلم أن يتنبه لذلك، لأن فاقد اللذتين سيقع في دائرة الإحباط الشديد، وما يلازمها من أمراض الباطن.

(المعية الإلهية)

إن استحضار معية الله عز وجل في قالبها الخاص، لا تتأتى لمن ركب المعاصي والكبائر، والناظر إلى سيرة السلف الصالح من نخب العلماء، يجد كيف تجلت المعية الإلهية في محاورهم العملية، فكان أحد العلماء يحاول أن لا يمد رجليه - حتى عند النوم - اعتقادا منه إن هذا نوع خلاف أدب في محضر الله سبحانه وتعالى وذلك من منطلق العشق الإلهي، واستحضار المعية الإلهية في أعلى صورها.

فعلى طالب العلم أن يسعى بسعيه لاستحضار المعية الإلهية -ولو في أدنى الصور -وذلك لا يتحقق إلا بتهذيب النفس، وتجلي العشق الإلهي في الذات.

(الإفهام الإلهي)

إن من الأسس الغيبية التي تسوق طالب العلم للموفقية والسداد، هو طلب الإفهام الإلهي المتمثل بالتسديد المحسوس، وذلك من خلال الإلقاء في الروع أو ما شابه، أو غير المحسوس كأن يجعله الله تعالى في أقرب الطرق للوفود اليه، كما في المناجاة السجادية، وليكن

لسان حال طالب العلم بل مقاله هو القول: اللهم إني استفهمتك فأفهِمني.

وفي إطار القصص والشواهد التي رأيتها وسمعتها أن أحد كبار التجار في إحدى البلدان قد حُبي بمقام الإفهام الإلهي، ففي كل أمر يرومه يُحدث له المولى في فؤاده - ولو في بعض حالاته - ما يدل على صلاح العمل وفساده حتى أنه ذات يوم طلب منه أحد المؤمنين أن يجري له استخارة، فوقع الأمر بنحو التفصيل في قلبه، فألقاه على مسامع الرجل فانبهر عجبا لما طرق سمعه.. واتفق أن سالته ذات يوم عن سر انفتاح باب الفيوضات عليه، ففهمت أنه اعترضته جملة من الظروف الإختبارية كالصبر على أذى الزوجة أو سخاء بمال يعتد به، فغشى قلبه ضياء قد سطع من نور العشق الإلهي، فصار أعلى المرام عنده أن يخلو مع الله عز وجل في محفل الأنس وأتهجد في محاريب الليل، وقد حبي بالمعية الإلهية في كل تقلباته حضرا وسفرا حتى أنه اتفق له أن يكون في بيئة آذاه فيها تبرج النساء الفاضح، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يهب له حالة تعصمه من هذه الأجواء الموبقة فصار -على إثر ذلك -يرى النساء وكأنهن على أشكال العجائز.. وهذا شأن الله -جل ذكره -يعطي الكثير بالقليل، فقد نال هذا الرجل الكثير في إطار هذه المقامات، في قبال القليل في إطار تصفية القلب.

(مبدأ الاستجداء)

إن المرء قد يجتهد في العمل ليلا ونهارا ليؤمّن بذلك المال لقوت

عياله، و قد يأتي عليه يوم يطرق فيه بابا من أبواب كرام أهل الدنيا فيُعطى قوت سنته بالكامل، و كذا الحال في المستجدي عندما يطرق بابا من أبواب الكرم الإلهي، فيُعطى الأضعاف المضاعفة فيتحصّل على الكثير من العطايا في لحظة واحدة من غير جهد ولا تعب.. لا يخفى أن الإستجداء من أهل البيت عليهم السلام أفضل الإستجداء، وأفضل الأوقات لذلك هو في أيام مواليدهم وأعيادهم الزاهرة، فعلى المتشرف للكون في حضرتهم في هذه المناسبات العطرة أن لا يضيع على نفسه الفرصة لكسب العطاء، فليطلب الهدية مستجديا منهم.

والناظر إلى سيرة العلماء يجد تحقيقهم لهذا المبدأ؛ فقد كان أحد السادة العلماء ممّن رأيته في إحدى البلدان له كرامة في تحقيق الشفاء، بحيث كان يراجعه المؤمنون وغيرهم، والسر في ذلك يرجع إلى هذه الحادثة:

فقد كان هذا السيد الجليل منشغلا بطلب العلم لسنوات طويلة في النجف الأشرف، فطُلب منه السفر للإستقرار في إحدى البلدان للقيام بدوره في دائرة التبليغ والإرشاد، فأعرب عن موافقته لهذا الطلب وهيأ نفسه للمغادرة، فرآه احد كبار المدرسين آنذاك فقال له: كيف تغادر النجف وأنت لم تأخذ زاد سفرك من أمير المؤمنين عليه السلام ؟!.. فوجد مقالته نِعم المقالة، فذهب على إثر ذلك للزيارة وخاطب الأمير عليه السلام مستجديا: يا سيدي ومولاي، أنا في طريقي للسفر فأعطني زادا لسفري!.. فأعطي هذه الكرامة.

وأفضل العطاء في الإستجداء أن يُحبى طالب العلم بكرامة القبول

في الأنفس والقلوب، فقد صُرح في تراجم بعض العلماء، أنهم حبوا هذه الكرامة الإلهية فعبّر عنهم في ترجمته انه (رُزق القبول)..

فما الفائدة في أن يكون أحدهم خطيبا فاضلا لامعا لا يخطأ في لام ولا ميم، من غير أن يترشح أثر مقالته على الأنفس والقلوب؟! فيؤول ما بذله من جهد في تحصيله العلمي، إلى مجرد لقلقة وخطابة في عالم الألفاظ فحسب؟!.

وليُعلم أخيرا أنَّ الذي يشكك في عطايا الأئمة عليهم السلام والمثوبات الإلهية - كما يرد في المأثورات كثيرا - بدعوى أنها خارج عن دائرة قبول العقل لها، فهو في الحقيقة والواقع يشكك في احد أمرين: إما في قدرة الله، أو في كرمه اللامتناهيين.. فإذا كان الله تعالى قادرا وكريما، فما الذي يمنع من أن يعطي بلطفه ورحمته هذه العطايا الخارجة عن حد التصور؟!.

(الطفرة الروحية)

إن الطفرة في عالم الأبدان والمادة غير ممكنة إلا في دائرة الاعجاز، وأما في عالم الأرواح والمعنى فهي ممكنة بل متحققة، ويقررها الشواهد المتكثرة كالمولى الحر وبُشر الحافي (رضوان الله تعالى عليهما) فليبحث طالب العلم عن هذه الطفرة، ففي لحظة من اللحظات أو ساعة من الساعات، قد ينقلب حاله رأسا على عقب، فيدخل الحرم فقيرا ويخرج غنيا وروحه ترفرف في سماء العارفين.

وكما أن قطع الحديد تلتحم بسقف البناء عن طريق جهاز معهود، وذلك في لحظة من اللحظات - ولو طال لذاب الحديد - فكذا الحال

في طفرة الروح. فليسعَ طالب العلم لتحقيق نقطة تلحيم لروحه بسقف المقامات العالية.

(الشراب الطهور)

ويجد الناظر إلى ضريح المولى أمير المؤمنين عليه السلام لمن حظي بتوفيق الزيارة، هاتين الآيتين المباركتين قد نقشتا على تطاريز المشهد الشريف ﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً * إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾[1].

والظاهر أن الضمير في قوله عز وجل ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً﴾ إذا جعلناه إلى أقرب المذكور كما هي القاعدة، فإنه يكون عائدا على الشراب فيكمن الجزاء في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾ والمراد من الشراب الطهور ما يطهرهم من كل الأغيار، فينسون ذِكر كل شيء سوى ذكر المحبوب.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في ذيل قوله تعالى ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾: «**يطهرهم عن كل شيء سوى الله، إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان إلا الله**»[2].

ولو سُقي طالب العلم قطرة من هذا الشراب لحُبي مقاما رفيعا، فليطلب عند زيارته للأمير عليه السلام أن يسقيه من هذا الشراب ولو قطرة واحدة!

---

١) سورة الإنسان: الآية ٢١-٢٢.

٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٦٢٣.

(الفيصل بين الحال والمقام)

إن البعض قد يلتبس عليه الفارق بين الحال والمقام، فقد يكون من أهل الحال وظنه أنه من أهل المقام، ولكي نفرق بينهما علينا ان نتأمل في نوعي العدالة، فهي إما أن تقع في دائرة الفعل أو الملكة. فإذا كانت في دائرة (الفعل) فالمناط فيها هو ترك المعاصي والذنوب على نحو العمل الخارجي، والتي قد ترتفع بإيقاع المعصية في موردٍ ما. وإما وإذا كانت في دائرة (الملكة) فالمناط فيها هي القوة الباطنية التي تعصم صاحبها من الذنب ولا تفارقه، فكذا الحكم في الحال والمقام. فالحال ملاكه الفعل الخارجي الذي ليس فيه الثبات والدوام، خلافا للمقام الذي ملاكه القوة الباطنية التي يلزمها الثبات والدوام.

وطالب العلم إذا اعترته بعض الحالات المتقطعة في شهر رمضان وموسم الحج والمحطات الروحية، فهي تقع في دائرة الحال، ولكن إذا حوّل هذه الحالات إلى حالات ثابتة في إطار الخشوع والخضوع، واستحضار المعية الإلهية فتقع عند ذلك في دائرة المقام..فليكن سعيه أن يكون من أهل المقام لا من أهل الحال.

(الفيصل بين القرب الظاهري والباطني)

إن التقرب إلى الله عز وجل سواء عن: طريق التوسل بأوليائه، او المناجاة بين يديه، يقع تارة في إطار الظاهر، وذلك عندما لا يشتمل على الثبات وبقاء مكاسبه المعنوية، وتارة يقع في إطار الباطن وذلك عندما يشتمل على الثبات وبقاء مكاسبه المعنوية.

ولهذا كثيرا ما يشكوا البعض عند الرجوع من الزيارة أنهم لا

يجدون تلك الآثار المرجوة منها، كزيارة الله تعالى في عرشه في زيارة الحسين عليه السلام[1] فمن كان عاصيا يرجع إلى عصيانه، ومن كان ذو ملكة فاسدة رجع بملَكَته وكأن شيئا لم يكن.. فعلى طالب العلم أن يتقرب تقربا باطنيا، وذلك لا يحصل إلا بالمراقبة والمحاسبة المستمرة قبل الزيارة وبعدها.

(الإستقرار الباطني)

إن على طالب العلم أن يرى نفسه بين يدي الله عز وجل في كل أحواله، سواء كان في جوف الكعبة أو في بيت الخلاء، ففي الرواية أن موسى عليه السلام قد سأل ربه: «**أني أجلك عن الذكر في مواضع! فأتاه الجواب أذكرني على كل حال**».[2]

فإذا وصل إلى هذه الدرجة من الثبات والاستقرار تأتيه الضيافة الإلهية مما لذّ وطاب من الطعام والشراب المعنوي، كالمسافر على متن الطائرة عندما تستقر حركتها في الهواء، يبدأ وقت ضيافته ويُجلب له الطعام والشراب المادي.

فعليه أن يسعى بكل سعيه ليصل إلى هذه الدرجة، ولا يتخيل في قرارة نفسه أنه لا زال في أول الطريق فيكون من المسوفين، إذ ربما قد يوفق للوصول قبل غيره من كبار الأساتذة إذ «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم**»[3].. وكما أن الجانب

---

١) بحار الأنوار: ج ٩٨، ص ١٠٥؛ ح ١١. مصباح المتهجد: ص ٧٧١.

٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٢٩؛ ح ٥٨.

٣) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٢٤٨.

العلمي لا يتقيد بالوقت والعمر فكذا الجانب المعرفي. فطوبى لمن حاز هذه الدرجة.

(الأركان الخمسة لترويض النفس)

- **المشارطة:** وهي أن تشترط على نفسك ما تريد إعماله في سيرك العملي، كأن تشترط على نفسك ألا تدخل إلى جلسة الدرس إلا بالبسملة.

- **المراقبة:** وهي أن ترى نفسك هل عملتْ بما اشترطته على نفسك أولا ؟!..

- **المحاسبة:** قد يتفق لبعض من يحاسب نفسه عندما يغط في نوم طويل ويستيقظ، أن يصفع وجهه محاسبا نفسه، والبعض قد يخاطب البدن غاضبا: ما هذا النوم والسبات العميق؟!.. لاتكن جيفة [فأبغض الخلق إلى الله هو الجيفة بالليل، والبطال بالنهار][1]. وكم ينطبق هذا المعنى على الكثيرين! ناهيك أن كثرة النوم تدع الإنسان فقيرا يوم القيامة !.

- **المعاتبة:** وهي أن تجعل لنفسك محكمة في آخر الليل، تعاتبها على ما اقترفته من جرم ومخالفة.

- **المعاقبة:** وهي أن تنفذ العقوبة على كل حالة مخالفة لما اشترطته على نفسك، فماذا يمنعك إذا فاتك قيام الليل في ليلة ما، أن تعاقب نفسك بالصيام؟!.. وهذه المعاقبة نافعة جدا لمن أراد الإلتزام بنافلة

---

١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٥٤.

الليل، فجوع النهار وعطشه - خاصة في الصيف الحار - يقهر النفس والبدن مقابل ترك ربع ساعة من الليل تبذله في ركعات معدودات، فيكون هذا حافزا للراحة من ثقل الصيام و مشاقه، فلا يفوتك حينئذ قيام الليل.

(الزيارة وآدابها)

إن الزيارة الحقيقية لا تتحقق من خلال إدخال البدن في حيز الحرم، بل من خلال مقابلة الروح لصاحب الحرم، فكما أن الميت عندما يُطاف بجنازته حول الحرم فإنه لا يصدق بذلك - عرفا - أنه زائر لصاحب المقام، وكذلك الحي الذي أُطبقت حواسه بالنوم، فحُمل بنحو من الأنحاء إلى داخل الحرم، فإنه لا ينطبق عليه عنوان الزائر إلا مجازا.. وهذا المعنى يسري أيضا لمن زار المعصوم وهو في حالة من الذهول تشبه ذهول الميت والنائم في المثالين.

وقد يصعب على المستأنس بعالم الحواس، أن يدرك هذا المعنى المجرد، وذلك لغلبة المادة على المدركات البشرية، ولكنه إذا تأمل وأمعن النظر، يجد الفيصل بين الزيارة في بُعديها المجرد والمادي جليا.

وتطبيقا لما قلناه من غلبة البعد المادي على المدركات، فإننا نرى البعض في المشاهد العامرة بالبناء، قد يتفاعل أكثر مما لو كان في

مشهد البقيع مثلا، والسر في ذلك يرجع إلى غلبة الجانب المادي في حدود الحرم لدى الزائر.

وعليه فإن الزائر الذي لا تتجلى له إلا المعاني المجردة فإنه لا يتأثر بهذه الحدود المادية، ومثال هذا الزائر هو المرجع الكبير السيد محمود الشاهرودي رحمه الله فقد نقل لي ابنه المبرور أنه عندما توفق لأداء مناسك حج الفريضة عند زيارته للمدينة المنورة و تشرف بزيارة أئمة البقيع عليهم السلام ثم رأى هذه القبور التي لا ضريح يحفها ولا قبة تظللها، فإنه لم يتحمل هذه الظلامة المفجعة، فقال بحرقة: يا ليتني كنت أعمى ولم أرى هذه المناظر المؤلمة !.. ولعله لم يزر أئمة البقيع أيام إقامته بالمدينة وبهذا تتجلى الحالة التفاعلية عند الزائر الملتفت بقلبه إلى الحقائق المجردة.

وكما ينبغي لطالب العلم أن يتأدب بالآداب الظاهرية، الوارد ذكرها في كتب الأدعية والزيارات كآداب السفر والاغتسال، عليه أن يهيأ نفسه قبل الدخول إلى الحرم، بالتأمل فيما يوجب له تحصيل الاستعداد..ولا يخفى أن من هذه الآداب -أيضا -الاستئذان قبل الدخول، والذي يكشف عن قبوله رقة القلب وانسكاب الدمع.

ومما ينبغي لطالب العلم أن يحققه في زيارته، هو أن يحسن الطلب من المعصوم عليه السلام لا سيما في المناسبات والمحطات الهامة، وذلك بأن يطلب طلبا يعتد به تبقى آثاره إلى أبد الآبدين، ونعم الطلب عند مخاطبة المعصوم عليه السلام أن يقول له: إذا جاء ولدك المهدي عجل الله فرجه لزيارتك فأوصه بي خيرا.

فمن دعا بهذا الدعاء وتحققت له الإجابة - وهي لا تتخلف - فما

هو مقدار الفوز عنده؟!.. أو ليست السعادة العظمى تتمثل في أن يكون صاحب الأمر عليه السلام كفيلا له ووصيا عليه؟!.

(أدب الصلاة على النبي وآله)

قد يرفع البعض أصواتهم بالصلاة على النبي وآله (صلوات الله عليهم) ويغفل عن أن الصلاة عليهم دعاء شعوري وليس بشعار ديني مجرد، فينبغي أن يُتخذ منه دعاء في هيئة الداعي، ولو في دائرة القلب وإن كان الظاهر في حال انشغال.

فعندما يصلي المرء فإنه في إطار الحقيقة، فهو يخاطب الله سبحانه وتعالى بقوله (اللهم) فلو قالها وعينه على التلفاز - مثلا - وقد انشغل قلبه وظاهره به، فقد يتحقق بذلك وهن لله عز وجل، فعلى طالب العلم أن يلتفت لهذا الأمر.

والبعض عندما يصلي على النبي وآله يطأطئ رأسه ويغمض عينيه ويرفع يديه بالدعاء، فعلى طالب العلم أن يترشح الدعاء على قلبه ولو في الجملة.

(أدب الاستخارة الإلهية)

وتكمن الاستخارة في دائرة الدعاء أيضا، فقد يستجاب دعاء المرء وقد لا يستجاب، فالذي يستخير الله عزّ وجل بقوله (اللهم إن أستخيرك برحمتك) ثم يأخذ قبضة من السبحة بقلب منشغل، فعليه أن لا يتوقع الجواب وقد يكون في أمر مصيري كالزواج أو الطلاق أو السفر ونحو ذلك، فهي ليست ضربة حظ بل دعاء،

وله آداب وشرائط كباقي موارد شروط الاستجابة، فإن لم يتوجه في دعائه فكيف يأمل الاستجابة؟!

ولهذا يذهب البعض لطلب الاستخارة عند كبار العلماء وأهل المعنى، وهذا لأنه إذا سألوا الله سبحانه وتعالى الخيرة كان سؤالهم عن إقبال وتوجه، لا عن لقلقة لسان.. ومع ذلك فإننا نعتقد أن صاحب الحاجة إذا أقبل في دعائه وسأل ربه الخيرة، كان أولى من غيره بالاستخارة ثم الاستجابة، فهو المحتاج والملهوف.

وعلى طالب العلم إذا أراد الاستخارة أن يذهب إلى الحرم او مواطن الاستجابة كالمسجد، أو اوقاتها كعقيب الصلوات أو جوف الليل مثلا، ويتوجه في دعائه ويستخير فعندها يُرجى أن يأتيه الجواب.

(مراعاة الحقوق)

إن مراعاة الحقوق لمن أهم الأركان في طريق السير والسلوك إلى الله عز وجل، فينبغي لطالب العلم أن يجعل هذا العماد نصب عينيه كي لا يغفل عن دقيق معالمه.. وقد رُوي في القصص الأخلاقية أن أحدهم في دائرة البرزخ قد أُمر به أن يلقى في العذاب، فاعتراه التعجب فقيل له: إنه قد كانت لك أخت كلما راموا لخطبتها، صددتهم عنها بمخالفتك المستمرة، وكان في خفيّ نيتك أن تبقيها معك، لتكون في محضر خدمتك فضيعت عليها حقها.

والناظر إلى سيرة العلماء يستلهم هذا المعنى في بعده الدقيق؛ فقد روى لي احدهم عن أحد العلماء كان يعرفه، وكان قد أصيب بداء في إحدى عينيه، فأجرى له أحد الأطباء عملا فنتج عن الفشل - لخلل

بدا في عمله - أن فقد بصره، فأخفى الأمر عن الأولاد والعيال، إذ كانت عينه المصابة في الظاهر سالمة، وبعد انصرام مدة من الزمن جلى لهم ما قد خفي عنهم، فاستثاروا غضبا وهموا في رفع دعوى قضائية على الطبيب، واستظهروا العتب على أبيهم فقال لهم: أنا كنت على وجل أن يُذكر عيبه، فيتضاءل عدد مرضاه فيخسر المال من وراء ذلك !.

وفي هذا السياق أيضا فإن الشيخ المرحوم الميرزا جواد آقا الطهراني[1] كما - سمعته من ولده الشيخ محمد - قد أوصى أن يدفن في المقبرة العامة (بهشت رضا عليه السلام) والتي تقع في الأطراف النائية لمدينة مشهد، كي لا يدفن في جوار العتبة الرضوية المقدسة، لأن المتوقع لأمثاله من كبار الشخصيات أن يتقرر دفنه في داخل الحرم من غير أن يُؤخذ ثمن القبر، فأبرم الشيخ وصيته لئلا يفوت ربح على إدارة الحرم، فقد يدفن أحد المؤمنين في هذه البقعة، فيُؤخذ من ذويه مال بإزاء القبر.

وقد يقال إن هذه المصاديق فيها مبالغة شديدة لمراعاة الحقوق، ولكن المتأمل بإمعان يجد أن هذا من لوازم المراقبة الدقيقة - وإن لم يكن ملزما فيه شرعا - فليأخذ طالب العلم هذه المقالة بعين الاعتبار.

١) من علماء مشهد المقدسة، توفي عام ١٩٨٩م.

(المحاسبة الدقيقة)

على طالب العلم أن يحاسب نفسه بشكل دقيق،محاسبة الشريك لشريكه والسيد لعبده، في الصغيرة والكبيرة وفي فروع المعيشة من المأكل والمشرب والمنام وغير ذلك، مقتديا بما ورد عن السلف الصالح.

وفي رحاب ذكر الأولياء الصالحين: فقد كان أحدهم ممن رأيناه لا يتفوه بحرف إلا بعد أن يتأمل فيما يقول، بعد أن كان غالبا عليه السكوت، ولكنه إذا أبرم الجواب تفجرت ينابيع الحكمة من لسانه، وقد زاد بذلك رفعة في مسالك محاسبة النفس، وأمعن النظر في قول الله عز وجل ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] فكان مصدقا عاملا.

---

١) سورة ق: الآية ١٨.

(موجبات الإخلاص)

إن الطريق إلى الإخلاص يكمن في أمرين:

الأول: أن يتصور طالب العلم عظمة شأن الذي يتقرب إليه، وقد نقشت هذه العبارة على قلوب العارفين بالله تعالى (**ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك**)[1] وهي تكشف عن حقيقة مؤلمة تعتري الكثير: وهو أن يبتغي المرء وجه الغير من دون الله عز وجل، وبتعبير ذاك المجتهد العارف: كم من المضحك أن يأتي المرء وهو فقير يستجدي من فقير آخر!.. وذلك فيما جعل طالب العلم عينه على الغير، فهو في الواقع هو الفقير الذي يستجدي من فقير آخر، فياله من منظر مضحك يثير السخرية !

الثاني: المعرفة النظرية بالله سبحانه وتعالى التي قد تُكتسب من العقائد وعلم الكلام وما شابه، ولكن يحظى بقصب السبق من حوّل هذه المعرفة النظرية - بالمجاهدات العملية - إلى محبة قلبية تسوقه

---

١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٣.

إلى الإخلاص والخلوص، فالمحب لا يرى إلا محبوبه.

وقد سمعت عن احدهم نقلا عن أحد الصالحين أنه قال: توسلت بأبي عبدالله الحسين عليه السلام بأن يهب لي صلاة خاشعة، فوهبني ذلك حتى صرت عندما أريد أن ألتفت إلى الغير فإنه لا يمكنني ذلك!

فالذي لم يصل إلى الخشوع في صلاته، فانه عندما يريد أن يتوجه فيها فإنها تكون بمعاناة وتكلف، أما الواصل فإنه إذا أراد أن يلتفت إلى الغير - بحسب الفرض - يكون ذلك ثقيلا شاقا عليه.

وليعلم أنه يستحيل وقوعا على الواصل أن لا يخلص في ساحة القرب الإلهي، فكما أن المرء لا يمكنه أن يرى ضوء للشمع أمام ضياء الشمس الساطع في وضح النهار، فكيف بالذي رأى بارئ الشمس ومشمّسها، عندها لا يرى في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى.

والمتأمل في هذه الآية ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1] يجد أعلى صور الإخلاص فيها، أي سقاهم ربهم شرابا يطهرهم من كل الأكوان والأغيار سواه، وهو شراب يُسقاه المؤمن في الجنة، ولكن هنيئا لمن تذوقه في دار الدنيا قبل الآخرة !.

(عوامل الترقي)

إن على طالب العلم أن يبحث عن عوامل ومقتضيات النجاح والتوفيق في طريق طلب العلم، وإن أول هذه العوامل يكمن في المثابرة وعدم استعجال النتائج، فالإنسان قد خلق هلوعا - كما يعبر القرآن الكريم[2]- وهذه الطبع الانساني حاكم على السير العلمي والعملي

---

١) سورة الإنسان: الآية ٢١.

٢) سورة المعارج: الآية ١٩.

في الحياة، فهكذا حال ابن آدم يروم النتائج والمعطيات السريعة، والحال ان رب العالمين ليس بناءه على ذلك، فالمثوبة الإلهية مؤجلة أيما تأجيل.. ألم يكن بإمكان الله عز وجل أن يعطينا شيئا من مثوبته في دار الدنيا، فمن يصلي منا صلاة الليل يرى في جيبه سبيكة ذهبية مثلا، فيعجل لنا بعض الجوائز والجزاء؟!.. ولكن ليس هذا هو البناء.

إذن على طالب العلم أن يثابر ولا يستعجل النتائج، فطريق طلب العلم فيه شيء من الإبهام ونتائجه غير معلومة، ولعل الله عز وجل جعل مثل هذا الإبهام في هذا الطريق كي لا يُغري كل الناس بهذا الطريق، فحقيقة الأمر في هذا الطريق تكمن في معاملة مع رب العالمين، وهي تحتاج إلى توكل وتفويض، ولكن إن أينعت ثمارها فإنه سيحصل المرء على كل غالٍ ونفيس.

والثمرة في هذا الطريق ملحوظة، فإنك تجد على مدى القرون في تاريخ التشيع بزوغ شخصيات لا تقدر بثمن، فوجود العالم الرباني يملأ فراغا لا يُملأ بآلاف المهندسين والأطباء، وهذه حقيقة ملحوظة بالوجدان.

وثاني هذه العوامل يكمن في التخطيط والبرمجة، وهذا المعنى ليس فيه بدعة في البين، ولا يصطدم مع معنى التوكل والتفويض، فعلى طالب العلم أن يخطط سيره العلمي والعملي في كل يوم من الصباح إلى المساء، فاليوم بمثابة الناقة كبيرة الحجم والوزن، ولكنها تقاد بحبل يُربط به، وكذا الحال في اليوم، فبإمكانك أن

تقوده في أول ساعات النهار، فإن فاتك أول النهار هرب من يدك. كما عليه البعض عندما يقضي أول نهاره إلى ضحاه في نوم عميق. ثم يستيقظ ليملأ جوفه بالأكل والشرب، ثم يكمل سباته إلى المساء. حتى أن بعض طلاب العلم - مع الأسف - يُرى هكذا في أيام التعطيل.

فليُتنبه إلى أن ساعات العمر لا تعوض بثمن، فلا بد من حركة دائمة نحو الهدف والغاية، لتحصيل النجاح والتوفيق.

(الصلاة الخاشعة)

الصلاة في إطار الأهمية:

ومن أمعن الطرف بناظر الفؤاد في هذه الرواية «و اعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك فمن ضيع الصلاة فإنه لغيرها أضيع»[1] يستلهم وقع أهمية الصلاة ومحوريتها في محطتي الدنيا والآخرة، وإن أول خطوات السير إلى الصلاة الخاشعة، يكمن في معرفة أهميتها من منطلق الدين والشريعة.

الصلاة في إطار الحقيقة:

إن الفيصل القاسم بين الصلاة الخاشعة وغيرها، يكمن في تحقيق لباب المعنى، فإن الصلاة إن جعلناها إحراما للدخول على مملكة مالك الوجود فإنها تكون تارة:

- احراما للدخول على عرصات لقاء المعبود.
- احراما في اطار إسقاط التكليف فحسب.

---

١) أمالي الطوسي: ص ٣٠.

فعلى إثر ذلك يتجلى المعنى من قوله تعالى ﴿وَ اسْتَعينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعينَ﴾[1] فالصلاة في إطار القالب الجسدي للعمل، تتمثل في ركعتين أو أربع ومن حيث الكم الزماني، فإنها تنصرم في دقائق من الزمن، فلا ثقل ولا كبَر في البين.. فقوله عز وجل ﴿وَإِنَّها لَكَبيرَةٌ﴾ ناظر الى جهة الثقل المعنوي لها، فمن رام الصلاة خلاصا من التكليف المتوجه إليه، كيف لا تكون كبيرة عليه، حيث يقاسي فيها العناء والمشقة كما هو مشاهد بالوجدان؟!.. وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى الْخاشِعينَ﴾ ناظر الى من رام الصلاة شوقا للقاء المعبود في شغف، للأنس به في خلوة العشق الإلهي.

الصلاة في إطار القبول:

إن الإجزاء للصلاة معنى يغاير القبول، ومن المعلوم أن من موجبات عدم القبول توجه الفكر إلى كل رطب ويابس حين الصلاة - ولو كانت في اطار العلم- كالانشغال بمسألة علمية كانت في باله قبل الدخول في الصلاة، ومن المعلوم أن كل فكر في سواه فهو تفكير في الاغيار، ولو كان في قالب يمتّ إلى الشريعة بصلة، فالشريعة على عظمتها تغاير صاحب الشريعة، ولا ينبغي الخلط بينهما.

والواقف على هذه الرواية يدرك عظيم الفاجعة: «وأيما عبد التفت في صلاته قال الله تعالى: يا عبدي إلى أين تقصد ومن تطلب؟! أرباً غيري تريد أو رقيبا سواي تطلب أو جوادا خلاي تبتغي؟! أنا

---

١) سورة البقرة: الآية ٤٥.

أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، وأفضل المعطين أثيبك ثوابا لا يُحصى قدره، فأقبل علي فإني عليك مقبل، وملائكتي عليك مقبلون. فإن أقبل زال عنه إثم ما كان منه، وإن التفت بعد، أعاد الله له مقالته. فإن أقبل زال عنه إثم ما كان منه، وإن التفت ثالثة، أعاد الله له مقالته. فإن أقبل على صلاته غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وإن التفت رابعة أعرض الله عنه وأعرضت الملائكة عنه ويقول: وليتك يا عبدي ما توليت»[1].

فالمدار الذي يدور عليه قبول الصلاة وردّها في إطار المقررات الإلهية، يكمن في التوجه وحضور القلب ففي الرواية «إن العبد لا يقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه»[2].

فعلى طالب العلم أن يجتهد في إحقاق الأمر، ليُتوج بصك القبول.. وحذار حذار أن يحرم للصلاة ببدنه، وقلبه مستغرق في الغفلة، فيُطرد من ساحة القرب الإلهي.

الصلاة في إطار الاستعداد:

إن من أهم الأسس العملية في إطار الصلاة الخاشعة، يكمن في الاستعداد والتأهب للصلاة قبل دخول وقتها ولو في دقائق معدودة.

وقد وجدنا البعض من عوام المؤمنين يقدم نوافل الظهرين على الفرضين، ولكن البعض من الخواص لعله لم يقم بها مرة واحدة!.

ومما يزيد الخطب أسفا أن البعض ينشغل بالدرس والبحث

---

١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام؛ ص ٥٢٤.

٢) علل الشرائع؛ ج١؛ ص ٢٣٢.

العلمي حتى يقع الوقت، فيحرم للصلاة من غير تأهب، فكيف يروم صلاة خاشعة؟!

الصلاة في إطار العرفان:

وفي رحاب المعرفة الخاصة للعارف في صلاته، اذكر ما رأيته في سفرنا لإحدى بلاد الغرب، فقيل لنا أنه يقطن في هذه البلدة فلانٌ من السادة من أولياء الله تعالى، فرامنا التعجب والاستغراب ففي ظل هذه الأجواء المشتعلة بلظى العصيان، كيف تأتت الظروف له؟!

فالتقينا به وسألناه عن قصته وما عنده من مقامات فقال: كنت أصلي من غير إقبال، فلم أكن أرضى بهذا، فكنت أستأنف صلاتي المرة والمرتين إلى أن يصل توجهي إلى حد الخلوص. فحُبيت - على إثر ذلك -الصلاة الخاشعة من أول الأمر، فإذا أحرمت للصلاة هامت الروح في عرصات لقاء المعبود، حتى أسلّم وأنا في عالم آخر من انصرام البدن وتجرد الروح.

إذن قد يتفق لطالب العلم أن يعثر في صلاته، والرجل النائي في بلاد الكفر والفجور، قد أتقن صلاته وحاز ما حازه من المقامات الإلهية.

الصلاة في إطار التوسل:

إن أقرب الطرق للوصول إلى الصلاة الخاشعة، يكمن في التوسل بحجج الله وأوليائه والاستغاثة بهم عليهم السلام لا سيما بالمولى صاحب الأمر عجل الله فرجه قبل إيقاع الصلاة، كأن يكون ذلك قبل تكبيرة الإحرام، فلربما أفيض عليه الخشوع في حبوة من قبل المولى عليه السلام فما دام

التوسل بهم جائزا، بل راجحا في صغار الامور، فكيف لا يكون في أهم الأمور وأجداها؟!.

(صلاة أول الشهر)

مما ينبغي لطالب العلم أن يواظب على مستحبات الشريعة، والتي من جملتها صلاة أول الشهر[1]، فالآفات كثيرة في الأنفس والأبدان والأموال، فليتحصن طالب العلم بهذه الصلاة، وإن التزم بها في بدايات كل شهر وبالدعاء الوارد بعدها فقد اشترى بذلك سلامة الشهر، ومن المستحسن أن يجعل لها محطة ثابتة في كل شهر، وقد ذكرت هذه الصلاة في الرسائل العملية، كتأكيد على هذا النفل بعد ذكر الفرائض مما يكشف عن أهميتها فليُلتفت.

(وقفة على مناجاة المريدين)

إن أراد طالب العلم أن يقف إجمالا على معاني الحب الإلهي، والعلقة بعالم الغيب ويستذوقها، فعليه بمطالعة مناجاة المريدين،

---

١) بأن يصلي في اليوم الأول من كل شهر ركعتين ، يقرأ في الأولى بعد الحمد قل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الثانية بعد الحمد إنا أنزلناه ثلاثين مرة ، ثم يتصدق بما تيسر فيشتري سلامة تمام الشهر بهذا ، ويستحب أن يقرأ بعد الصلاة هذه الآيات : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ، بسم الله الرحمن الرحيم وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم، بسم الله الرحمن الرحيم سيجعل الله بعد عسرا يسرا ما شاء الله لا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل، و أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين﴾ ويجوز الإتيان بها في تمام اليوم وليس لها وقت معين.

ففي جملة المناجيات والدعوات، لا نجد ما هو أعذب من هذه المناجاة في معين العاطفة والعشق.

وعلى طالب العلم أن لا يقرأ هذه المناجاة إلا مع بالغ الإقبال، فالأمر في قراءة غيرها من المناجيات كمناجاة التائبين سهل، لتناسبه مع حال العاصي، بخلاف هذه المناجاة فإنها تتناسب مع حال المريد المحب.

وفي صدد ذكر المناجيات الخمس عشرة، فإننا نرى في المناجيات الخمسة عشر مخزنا للدواء بكل أصنافها: فإذا أتته نعمة وافرة، قرأ مناجاة الشاكرين، وإن فزع من وساوس النفس والشيطان قرأ مناجاة الشاكين، وأما إذا وصل طالب العلم إلى بعض فقرات مناجاة المريدين، فانه ينقلب حاله بالكامل، ليعيش حالة من البسط والانس، يستحيل أن يستذوقها أهل الدنيا المحجوبون بحجاب المادة!

(وقفة على دعاء كميل)

قد يتصور طالب العلم أن المطلوب هو قراءة الدعاء من أوله إلى آخره بأي نحو كان، والحال أن المطلوب هو قراءة الدعاء بحد الإقبال والرغبة، حتى وان لم يوفق لقراءته بالكامل، وان كان الأكمل هو الجمع بين القراءة والإقبال.

ولو قرأ طالب العلم دعاء كميل مقتصرا على هذه الجملة «إلهي وربي من لي غيرك» مرة واحدة أو أكثر مع حالة التوجه، لكان أفضل من قراءة الدعاء كله لقلقة، ومما يؤيده هذه الرواية «ركعتان مقتصدتان في تفكرٍ، خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب»[1].

---

١) مجموعة ورام: ج ١، ص ٢٥١.

وقد ورد في الدعاء هذا الطلب الملفت «واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك وأقربهم منزلةً منك وأخصهم زلفةً لديك» يعني يا إلهي اجعلني الرجل الأول في الفضل بعد النبي وآله، ولو على مستوى الرغبة والطموح !

ومن المعلوم أن المُعطي كريم في غاية الكرم التي لا حد لغايتها، ولكن ينبغي للداعي أن يتأهب للمدعو به، وأن يرفع الهمة والطموح في ذاته، فإنه من أهم عوامل الرقي إلى الكمال، لا أن يقنع بالقليل فيوجب ضعف الإرادة والهمة.

وكم من السعادة والتوفيق أن يقرأ طالب العلم دعاء كميل بجوار صاحبه في حرم المولى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يتمتم بكلمات الدعاء عند الضريح الأنور، ليتوسل في جوانح قلبه بلسان الحال قائلا: يا أبا الحسن حقق مضامين دعائك في ذاتي، فأنا زائرك وضيفك ولكل ضيف كرامة !.

وهذا جارٍ في غيره من الأدعية والمناجيات، كأن يَقرأ دعاء عرفة عند صاحبه في حرم سيد الشهداء عليه السلام أو يَقرأ المناجيات الخمس عشرة عند صاحبها الإمام زين العابدين عليه السلام في مقبرة البقيع، فإن ذلك له أثر خاص وهذا مما لا يخفى.

الفصل الرابع
في إطار المعوقات

(موانع الترقي)

(العزة والغضب)

(ضيق النفس)

(منزلق الإدبار)

(موانع الترقي)

لإتمام أي عملية تفاعلية في عالم الوجود، لابد من وجود المقتضي وانتفاء الموانع وتحقق الشروط، وهذه القاعدة تجري أيضا في عالم السير الأنفسي، كما هو الحال في عالم الآفاق، فكما أن لإيجاد الاحتراق لا بد من توفر النار المقتضية، وزوال الرطوبة المانعة، وتحقق المجاورة المشروطة، فكذا الأمر في السير الأنفسي، فإن المعادلة برمتها جارية، فخالق النار هو خالق النفس.. فعليه لا بد في عالم السير إلى الله عز وجل من إعمال القاعدة المزبورة - وبالخصوص في ما يرتبط بانتفاء الموانع - حيث إن السير النفسي في هذه الدنيا امتداده البرزخ والقيامة بلا نهاية، بينما السير الآفاقي انتهاءه القبر بعد نمو البدن من مبدأ النطفة إلى المنتهى، وهو تحول البدن إلى جيفة في طوق الفناء.

وأهم الموانع في السير الأنفسي يكمن في العدو المتربص لبني آدم، اعني إبليس وجنوده، ويمكن أن نمثل نقاط القوة في هذا العدو في

ثلاث خاءات: الخاء الأولى الخفاء، و الثانية الخبث، و الثالثة الخبرة.

أما الخفاء: فلنعلم أنه كما وصفه القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[1] فلو كشف الغطاء عن طالب العلم، لرأى الشيطان يحوم حوله بنحو الخصوص، فطالب العلم يرابط في محور المواجهة مع الشياطين المتربصة، إذ لم تزل الحوزة العلمية منذ آلاف السنين مهدا للعلم وتخريج العلماء، الذين يتصدون محاربة الشيطان بوعظهم وارشادهم..فلا يغفلن طالب العلم عن خفاء الشيطان وخفاء كيده، وأول خفاء لكيده ما وقع لأبينا آدم عليه السلام إذ كان الهاجس في خُلج آدم، أن هذه الجنة حلوة جميلة ولكن يعيبها أنه لا دوام فيها، فدخل عليه الشيطان من هذا الباب، أي يا آدم أنت تخاف من الحرمان من الجنة، فكُل من هذه الفاكهة وأرح نفسك!

وأما الخبث والخبيث: فهو الذي ينزل عقوبته على من لا ذنب له، فبدء شقاء إبليس كان عندما لم يسجد لآدم عليه السلام، ونحن كلنا أولاد آدم عليه السلام فهو يعادينا، لأن ابينا آدم عليه السلام كان سببا لشقائه، فينتقم بذلك منا.

وأما الخبرة الحاصلة من التجربة والممارسة: فإن المرء يحترف مهنته في سنة أو سنتين من العمل مثلا فيصبح خبيرا، وكالطبيب الذي يزاول عمله لعدة سنوات فيصبح بعدها حاذقا، وهكذا الشيطان فإنه خبير في الإغواء، فمنذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا - على الإختلاف في عمر الكرة الأرضية الذي يبلغ على أقل التقادير خمسة

---

١) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

آلاف سنة - قد مارس فيها الإغواء في كل مراتبه، إذ حاول مع مائة وأربعة وعشرين ألف نبي كما في قصص القرآن الكريم، فمنها قصة يونس عليه السلام إذ ذهب مغاضبا[1]، وقصة يوسف عليه السلام إذ قال اذكرني عند ربك[2]، ومع كل نبي له قصة وحكاية كما يجد ذلك المطالع لكتاب تنزيه الأنبياء، فما هو حد هذه الخبروية؟!

وقد ينتاب طالب العلم بعد هذه الخاءات الثالث، خاء رابعة مترتبة عليها، ألا وهو الخوف والوجل الشديد، فيقول أين أنا وما هو خطري في قبال النبي آدم عليه السلام مثلا وهو صفوة الله تعالى، ومع هذا قد أغواه الشيطان، فطُرد من الجنة.. فكيف بي وأنا الذي لا قيمة لي، فلا نجاة لي من الشيطان ومكره؟!

ولكن ليس الأمر كذلك، فهناك سبيل واحد للنجاة والفوز، ألا وهو دخول القلعة الإلهية التي تحصنك من كيد الشيطان ومكره، فإنه عندما يصل إلى هذه القلعة يقف عند حده، فناصيته بيدي الله عز وجل كما نقرأ في القرآن الكريم ﴿وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾[3] فكما أن جواسيس الجن لم يؤذن لهم بالدخول إلى العرش واختراقه - إذ كان المنع الإلهي لهم بالمرصاد - فكذلك رب العالمين، فإذا دخلت في حصنه المنيع يصد عنك خطر إبليس وجنوده، فتكون آمنا في رعاية الله عز وجل، فالأمر يلخصه إمامنا السجاد عليه السلام بقوله: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ

---

١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص ١٥٠.

٣) سورة الجن: الآية ٩.

وَاجْعَلْ آباءَنَا وَأُمَّهاتِنَا وَأَوْلادَنَا وَأَهَالِينَا وَذَوِي أَرْحَامِنَا وَقَرَابَاتِنَا وَجِيْرَانَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ فِي حِرْزٍ حَارِزٍ، وَحِصْنٍ حَافِظٍ، وَكَهْفٍ مَانِعٍ»[1].

ولكن السؤال عن حقيقة الحصن الإلهي، والجواب: إن هذا الحصن الرباني يتمثل في مقام المخلَصين وهو قول الله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

فلنتأمل هذه الآية ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكم فيها من التأكيدات؟! القسم (فَبِعِزَّتِكَ) ثم لام التأكيد ونون التأكيد الثقيلة (لَأُغْوِيَنَّهُمْ) ثم التأكيد اللفظي بمفردة (أَجْمَعِينَ) ومع ذلك هناك إستثناء في البين ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

والفرق بين المخلِص والمخلَص ليس كسرة وفتحة، بل بينهما بعد المشرقين، فالمخلَص هو من قبل الله تعالى إخلاصه وأمضاه، وإلا فإن المخلِص قد يتوهم الإخلاص، ولم يمض المولى إخلاصه بالقبول، ومن لم يقبل إخلاصه فهو في فم التنين وقبضة الشيطان.

وعليه فإذا لم يصل طالب العلم إلى هذه الرتبة، فهو على خطر عظيم.. فعليه أن يحاول أولا أن يكون مخلِصا، وثانيا أن يكون متوسلا إلى الله عز وجل لأن يصيّره مخلَصا، فالإخلاصية بالجهد والسعي، والمخلَصية اختيار إلهي في دائرة قوله تعالى ﴿وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾[3].

---

١) مصباح الكفعمي، الفصل ٢٧، ص ٢٣٠.

٢) سورة ص: الآية ٨٢ – ٨٣.

٣) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

إن طالب العلم قد تختلط عليه المعاني و تلتبس عليه القضايا، فيظن أن غضبه يكمن في دائرة العزة الإيمانية المتفرعة من نصرة الدين والشريعة، غير أنه غضبه في واقع الأمر يكمن في دائرة العزة الذاتية، المتفرعة من الأنا وحب النفس !.

والمعيار الذي يفصل بين العزة الحقة وما يقابلها، هو توخي النظرة الإلهية في كل إقدام وإحجام في دائرة الرضا والغضب، فإذا غضب طالب العلم وأظهر العزة في مقام الرفض لعمل ما، فإن كان المنطلق من وراء ذلك هو الغضب الإلهي فهذه عزة الإيمان، وإن كان المنطلق هو الغضب الذاتي فهذه العزة بالإثم.

وقد ينخدع طالب العلم بكذب إنيته وذلك عندما يغضب لأمر ما مع أخيه المؤمن، فيظن أن غضبه منبثق من عزة الإيمان، فيصطدم مع أخيه ويغرس الكدورة والخصومة في القلب من منطلق الدين المموه.

ولو كان ناظرا إلى الرضا والغضب الإلهي، لاختار التواضع لأخيه وحمله على محمل الخير، ليزيح بذلك العوائق المعترضة لطريق الإخوة الإيمانية.

وقد ينغمر طالب العلم بالإنية وحب النفس، فيمحض طرفه إلى رضاه وغضبه الشخصي، فتأخذه العزة بالإثم في اصطدام دائم مع الآخرين، فترتكز بذلك مظاهر الخصومة والعداوة، ويبقى مغمورا بهذه الإنية الموبقة إلى أن يرديه غرور النفس وعجبها إلى العمى

المطبق، فيسقط في الهاوية بنظر الخلق والخالق.

(ضيق النفس)

إن حالة الضيق قد تعتري طالب العلم فتتأزم في نفسه، وتعوقه عن السير إلى هدفه المنظور في المحاور العلمية والعملية، فيبحث عن العلاج الذي يرفع هذه الحالة الموبقة العارضة عليه، ليتحصل على الإنشراح والإنبساط في قرارة نفسه.

ويتجلى هذا الضيق تارة في الإطار الدنيوي و تارة في المجال الأخروي، فما كان من منطلق الدنيا فيتفرع بلحاظ منشأه الظاهري إلى قسمين:

فمنه: ما له منشأ يعرفه صاحبه، كأن يكون حاصلا على إثر المشاحنات مع الاغيار، او تبدل في الطبع والمزاج.

ومنه: ما لا يعرف له صاحبه منشأة بعينه، إذ قد يكون ضيقه أثرا لجملة من الخطايا التي لم يلحظها صاحبه، كإدخال الهم على ذوي الحقوق، ومن أبرز مصاديقه أن يقصر طالب العلم في صلة والديه فينتابهم الغم والحزن جراء ذلك، وكاستغابة من أحسن إليه كأن ينتقص أستاذه في عدم حضرته. والضيق في هذا الإطار الدنيوي يمكن علاجه في عدة محاور:

- الاستغفار المتواصل، بل عقد جلسة بليغة للاستغفار بين يدي الله تعالى.
- الصلاة على النبي وآله (صلوات الله وسلامه عليهم).
- قراءة سورة الشرح.

- إدخال السرور على المؤمن وتفريج هم له.
- إكرام الضيف.

وإن حالة الضيق هذه إذا لم يُسيطر عليها، فقد تتحول إلى حالة مرضية مزمنة في النفس، فقد رأيت أحد العلماء قد أصابه ضيق لا ينفك عنه، إلى أن تشنج وضعه بالكامل، فأصبح كالمشلول المقعد قد توقفت كل نشاطاته العلمية والعملية، وصارت نفسه كالأسيرة في سجن العزلة المظلمة.

وأما الضيق إذا كان من منطلق الآخرة، فهو يقع في دائرة الحسن والكمال، فقد كان أحد كبار المراجع - كما نقل لي ابنه - في حالة ضيق شديدة، فسأله عما أهمه فقال: أنا في ضيق عارم قد غمرني، إذ أفكر هل إمام زماني عجل الله فرجه راضٍ عني أم لا - ومن الطبيعي أن ينتابه الهمّ والغمّ لذلك فإن أموال الإمام والفتاوى عنده - فاستمر على هذه الوتيرة إلى أن أتته علامة الرضا.

وهذا الضيق لا يحتاج إلى علاج -كما لا يخفى -فهو لا ينبئ عن نقص وخلل في الذات، بل هو ينبئ عن رفعة وعلو.. فعليه فإن طالب العلم لاهمّ له، وإن كان له همّ فهو فسبيل جلب رضى مولاه.

وقد يكون الإدبار ناشئا من الضيق المترتب من مبدأ الفيض الأعظم صاحب الأمر عجل الله فرجه فإذا ترقى المرء في عالم الصفاء إلى صفاء يؤهله لأن يتصل بقلب الإمام عليه السلام فقد يترشح عليه ضيق من قلب المولى عجل الله فرجه فإذا قُتل مؤمن ظلما في مكان ما كم يتألم الإمام؟!.. وحينئذ كان من الطبيعي أن يترشح ألمه على قلوب بعض المؤمنين.

ومن أجدر من طالب العلم أن يتحمل هذا الضيق إذا كان مهدويا بالمعنى الاخص؟!

(منزلق الإدبار)

إن من الأمراض الروحية التي يُشتكى منها في طوال السنة - لا سيما في المواسم والمحطات العبادية - هو مرض الإدبار و قساوة القلب. فالإنسان يحب أن يرق قلبه في مواضع الرقة. وذلك في المشاهد و الليالي المباركة. فعندما لا يرى استجابة من باطنه يكون حاله كحال من يقود سيارة ومقودها لا يستجيب له. وكذا المرء في بعض الحالات تتوقف دابته الباطنية عن العمل. فهو يريدها أن تمشي في جهة ما، ولكنها تسير في جهة أخرى معاندة له!.

وقد تم طرح هذا البحث مفصلا في كتب الأخلاق. وفي كتب علم النفس أيضا فيما يتعلق بالإدبار والإقبال. فإن السير إلى الله عز وجل له دابة وهو القلب. والقلب إذا أدبر كان كالدابة التي توقفت عن المسير. فأوقفت صاحبها عن السير إلى مقصده.

وإن للإدبار قسمين: لازم وعارض. فأما الإدبار اللازم فهو ما يعتري الانسان الذي يرى في قلبه إدبارا صباحا ومساءا و في كل الفصول، و قد يتفق أن البعض من طلبة العلم، قد تمر عليه سنة لا يذرف قطرة من الدمع في خشية الله عز وجل، مبتعدا كل البعد عن قوله تعالى ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾[1] فإنه إذا استمر به

---

١) سورة المائدة: الآية ٨٣.

الأمر على هذه الشاكلة فهذا نذير خطر.

وأما الإدبار العارض في يوم ما أو في ليلة ما، فإنه يمكن تداركه وذلك من خلال الشكوى إلى الله تعالى، وتكلف التخشع والتباكي فإنه يؤول أخيرا إلى الخشية والبكاء، إذن هناك فرق بين الإدبار اللازم والعارض.

ويختلف منشأ الإدبار - سواء كان الإدبار متصلا أم منفصلا - فتارة يكون الإدبار ناشئا من وضع طارئ، كمشكلة عائلية أو أمر شاغل، فما دام المشوش موجودا فمن الطبيعي أن يكون القلب مدبرا، فإن الإقبال يحتاج إلى التركيز فهو مقدمته.

وتارة أخرى يكون الإدبار ناشئا من قسم آخر مرتبط بقضايا البدن، كأن يكون الانسان متعبا أو عنده صادع في رأسه، فإذا كان السبب بدنياً فالأمر ليس بضائر، ولكن إذا زال السبب البدني وبقي الإدبار فتكمن هنا المشكلة أيضا.

وقد يكون الإدبار ناشئا من الضيق المترتب على ترابط عالم الأرواح، وقد أشارت إليه الروايات فقد تكون روح المرء منسجمة مع روح مؤمن - ولعله كائن في أقصى البلاد - فهذا المؤمن إذا ضاق صدره من الممكن أن يسري ضيقه إلى صدر المؤمن المجانس له، ويتفق هذا المعنى في التوأمين و في الزوجين المتآلفين، فإن أرواحهم تكون مترابطة فيتحد عندهم موجبات الضيق والحزن.

(آفة العجب)

إن أشد الناس ابتلاء بالعجب في الدين هما صنفان العلماء والعباد. فالطبيب والمهندس ومن شابههم لا يعجبون بأعمالهم الدينية عادة فلسان حالهم: (ليس عندنا شيء في عالم العبادة. أنا لست إلا طبيبا ماهرا أو مهندسا كذلك) وأما العالم فإنه يرى كبرا في ذاته، وذلك عندما ينظر إلى الغير بمقياس المقارنة الضيقة. خاصة إذا خفقت خلفه النعال ومدح في علمه وأثني عليه. وكذا العابد فإنه يرى تميزا في ذاته على غيره من الناس في دائرة تهجده واجتهاده وتقواه وورعه.

ولهذا فإن المرء إذا حاز التفوق في إطار العبادة فكان له سهر في محاريب التهجد، وكان له ذكره المتصل في وصال الذاكرين، وكذا في إطار العلم لو كان له باع في الدرس والتحصيل والتأليف والتحقيق، فإنه في خطر عظيم من جهة أن موجبات العجب تتضاعف عنده.

والذي يكسر هذا العجب الباطني أمران:

الأول: تذكر ساعات الغفلة وهي ما أكثرها في حياتنا. والسالك إلى الله عز وجل حقيقة إذا التفت إلى حالات غفلته وسهوه، ينتابه الأسف والألم، نعم إذا جلس على كرسي التدريس، فإنه لا يتفوه إلا بدرر العلم والحكم، وإذا أقبل على محراب العبادة يكون خاشعا مقبلا.. لكن ماذا يصنع بالغفلات المتخللة؟!.

ولهذا فإن على طالب العلم أن يكون ذاكرا في كل أوقاته مع الإمكان، وتحقيق هذا الأمر ليس بهيّن إذ أن ساعات الغفلة لا تنتهي في حياته،

فكم يتقلب المرء على فراشه وهو ساهٍ، وكم يأكل زيادة عن حاجة بدنه، وكم يتكلم مع الغافلين في كل ما هبَّ ودبَّ؟!.. فلو جمعت هذه الغفلات لغطت مساحة كبيرة من العمر، فعلى طالب العلم إذا انتابه العجب أن يتذكر ساعات الغفلة والسهو هذه.

الثاني: الخوف من النهايات والوقوع في منحدر سوء العاقبة ومنزلق الانحراف، فكم من الذين انحرفوا عن سواء الطريق، وختم لهم بسوء العاقبة، وقد كانوا من أصحاب الأئمة عليهم السلام كالواقفية والشلمغاني وابن هلال وغيرهم من الذين لا يخلو منهم كل عصر.

فعلى طالب العلم أن يتنبه إلى أنه لا ضمان في البين، للاستقامة إلى آخر العمر.. أولا يستحق أن نتساءل بعدها: إذن فلم العجب؟!

والحمد لله رب العالمين

مصادر الكتاب:

١. الشيخ الطوسي، الأمالي، قم إيران، دار الثقافة، ١٤١٤ هـ . ق

٢. العلامة المجلسي، بحار الأنوار، بيروت لبنان، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٤ هـ . ق

٣. الإمام الحسن العسكري عليه السلام، تفسير الإمام العسكري عليه السلام، قم إيران، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٩ هـ . ق

٤. إبن أبي فراس ورام، تنبيه الخواطر (مجموعة ورام)، قم إيران، مكتبة الفقيه

٥. الشيخ الصدوق، علل الشرايع، قم إيران، مكتبة الداوري

٦. عيون الحكم و المواعظ

٧. الكليني محمد بن يعقوب، الكافي، طهران إيران، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٣٦٥ هـ . ش

٨. ابن قولويه القمي جعفربن محمد، كامل الزيارات، النجف العراق، المكتبة المرتضوية، ١٣٥٦ هـ . ش

٩. طبرسي الفضل بن الحسن، مجمع البيان، طهران إيران، نشر ناصر خسرو، الطبعة الثالثة، ١٣٧٢ هـ . ش

١٠. النوري الميرزا حسين، مستدرک الوسائل، قم إيران، مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ . ق

١١. الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد، بيروت لبنان، فقه الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ . ق

١٢. الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، قم إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٣ هـ . ق

١٣. السيد الرضي، نهج البلاغة، قم ايران، دار الهجرة

١٤. الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، قم إيران، مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.ق